



أَدْلَمْ شُكْرَلَّا

طه حسين

أحلام شهرزاد

تأليف
طه حسين



أحلام شهرزاد

طه حسين

رقم إيداع / ٤٥٩٥
٢٠١٤ / ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٦٩٩ ٤ تدك:

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٠١٢ / ٨

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارت الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية

تليفون: +٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ فاكس: +٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: <http://www.hindawi.org>

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

يُمْنَع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطى من الناشر.

Cover Artwork and Design Copyright © 2014 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

Copyright © Taha Hussein 1943.

All rights reserved.

أحلام شهرزاد

١

فلما كانت الليلة التاسعة بعد الألف أفق شهريار من نومه مذعوراً، وجعل يتسمّع لعله يجد ذلك الصوت الذي أيقظه، فلم يسمع شيئاً، وجعل يمدُّ يده عن يمينٍ ويمُّد يده عن شمالٍ ليتبينَ أيُّنكر من مصحّعه شيئاً، فلم يُنكِّر شيئاً، ثم استوى جالساً في سريره، وجعل يُدبر رأسه عن يمين وعن شمال ويُمد بصره في الظلمة المتكاثفة من حوله كما يُمد سمعه في الصمت المنعقد في غرفته، فلا يقع بصره على شيءٍ، ولا ينتهي سمعه إلى شيءٍ، ولا تصل نفسه إلى شيءٍ، فلم يشك في أن طائعاً قد ألمَّ به أثناء النوم فرده إلى اليقظة رداً لم يخلُ من بعض العنف، وما أكثر ما تهيم في ظلمات الليل هذه الأرواح المشردة التي تنطق في لغاتها الخفية بألفاظ تصل إلى نفوس الرقود أحياناً كما تصل إلى نفوس الأيقاظ أحياناً أخرى، فيفهمون عنها مرة ويختلطون الفهم مرات، ويكون لهذه الألفاظ الغريبة المبهمة في حياة الناس آثار غريبة مختلطة؛ منها الخير ومنها الشر، ومهما يكن من شيء فقد عاد شهريار إلى نفسه وارتسمت على ثغره ابتسامة سريعة لم تثبت أن مرت كأنها البرق، وثارت في نفسه عاطفة ضئيلة ولكنها حادة، فيها شيء من حسرة، وفيها شيء من يأس، وفيها شيء من حزن على عهد قد انقضى وليس إلى رجوعه من سبيل.

ثم ثاب إلى الملك رشده فتمكن في مصحّعه وأغمض عينيه وضم يديه إلى صدره ودعا النوم إلى نفسه دعاء قوياً، وكان النوم كان ينتظر أن يبلغه هذا الدعاء، فما أسرع ما مد ذراعيه فطّوق بهما عنق الملك الحزين في كثير من الرأفة والرحمة والحنان، وإذا الملك ينسى نفسه ويُمْعن في هذا الرقاد الحلو الهادئ المطمئن، ولم يدرك الملك أطال هذا الرقاد أم قصر، ولكنه أفق مرة أخرى مذعوراً ومد بصره في الظلمة المتكاثفة، ومد سمعه في

الصمت المنعقد، وتحسس ببديه عن يمين وشمال، فلما لم ير شيئاً، ولم ينكر شيئاً؛ انكر نفسه كلها، ونهض من مضجعه متثاقلاً، فجعل يمشي في غرفته على غير Heidi، حتى انتهى إلى نافذة من نوافذ الغرفة ففتحها، وكان ذلك إذنًا لضوء القمر في أن ينسأ في هذه الغرفة، ولكنه لم ينسأ، وإنما اندفع إلى الغرفة اندفاعاً أضاء له كل ما في الغرفة من فضاء ومن أثاث. هنالك أدار الملك بصره في الغرفة فلم ينكر من أمرها شيئاً، ثم أشرف من النافذة فاستنشق الهواء الطلق، ومد بصره في الفضاء العريض المنسسط أمامه، فلم ير إلا هذه الأشجار الباسقة الشاهقة في السماء، وقد لبست من ضوء القمر أردية نقية ناصعة، وامتدت غصونها تضطرب في الهواء اضطراباً خفيفاً، كأنها ترعب في النوم هذه الطير التي أوت إليها حين ول النهار، وكأن هذه الطير قد سكتت إلى حركاتها الخفيفة المنتظمة فنامت مطمئنة وادعة، لولا أحلام خفيفة خفية كانت تمر بنفوسها الضئيلة الوادعة، فتبعد من أفواهها أصواتاً قصيرة حلوة، وتبعث في أحجحتها خفقات يسيرة لا تكاد تبدأ حتى تنتقطع، وقد أطال شهريار وقوفه أمام هذه النافذة مادًّا بصره في هذا الفضاء العريض، وماً سمعه في هذا الصمت الجاثم عليه، وممتعًا نفسه بهذا الضوء الرقيق الذي يترقرق بينهما، وبهذه الأصوات الرشيقية التي تبلغه من حين إلى حين، حتى إذا ثاب إليه الهدوء، وأمتلأ قلبه سكينة، وأنسست نفسه أمًّا ودعة تراجع متثاقلاً، ولكنه لم يذهب إلى مضجعه، وإنما ذهب إلى مجلس من مجالسه في الغرفة، فترامى عليه متھالكًا، وقد أزمع أن ينتظر مطلع الصبح يقطان؛ فقد كره مضجعه، وكره النوم، وكره هذا الطائف الذي أخذ يزعجه منذ الليلة.

ولكنه لم يكاد يطمئن في مجسه حتى غاب عن نفسه، أو غابت عنه نفسه، وكأن النوم كان ينتظره خلف هذا المجلس، فلم يكدر يستقر فيه حتى مد إليه ذراعيه فطوق بهما عنقه في رأفة ورحمة وحنان، وإذا هو مغرق في رقاد عميق لذيد لا يدرى الملك أطال أم قصر، ولكنه أفاق مذعوراً للمرة الثالثة، فمد بصره ومد سمعه، ثم لم يلبث أن ضرب إحدى يديه بالأخرى، ففتح الباب، وأسرع الحرس وفي أيديهم المصايبح، قال الملك: «هل أنكرتم شيئاً؟» قال قائده الحرس: «لم ننكر شيئاً يا مولاي.» قال الملك في صوت فاتر متكسر: «هذا غريب! إنني لم أرقي من الليلة.»

ثم نهض ومضى متثاقلاً حتى خرج من غرفته والحرس يتقدمونه ويتبعونه، وهو يسعى هادئاً لا يقول شيئاً ولا يلتفت إلى شيء، حتى بلغ ذلك الجناح من القصر حيث كانت غرفات الملكة، فمضى أمامه وعاد حراسه إلى أماكنهم، وانتهى شهريار إلى غرفة

الملكة، فدخل دون أن يلتفت إلى هؤلاء الأحراس الذين أدهشهم مقدم الملك في هذه الساعة المتأخرة من الليل، ولكنهم لم يقولوا شيئاً، وما كان لهم أن يقولوا شيئاً، وأكبر الظن أن شيئاً من العجب قد ظهر على وجوههم، وفي النظارات القصيرة السريعة التي كانوا يترافقون بها ويختلسونها إلى الملك اختلاساً.

وأغلق الملك من ورائه باب الغرفة في رفق شديد، وسعى في هدوء أي هدوء إلى سرير الملكة يمشي على أطراف قدميه، فلما بلغه نظر إلى الملكة نظرة طويلة؛ فإذا هي مغرقة في نوم حلو، واستمع إلى تنفسها فإذا هو منتظم هادئ، وإذا الملكة لم تحس شيئاً ولم تشعر بمقدم هذا الشخص الذي انسلاً إلى غرفتها في رفق كما تنسل الأفعى، على غير ما جرت به تقاليد القصر، ثم تراجع الملك شيئاً حتى انتهى إلى مجلس من مجالس الغرفة، فأهوى إليه رفيقاً حريضاً على لا يُحِدِّث حسماً، وعلى لا يزعج الملكة عن نومها، فلما اطمأن به مجلسه أطرق كأنما ينتظر شيئاً، ولكن انتظاره لم يكن طويلاً؛ فهذا صوت شهرزاد يبلغ أذنيه فيملؤه رعباً وفرقاً ويقاد يخرجه عن طوره، لولا أنه يذكر شيئاً فيثوب إلى نفسه في اللحظة الأخيرة ويطمس في مجلسه ماداً عينيه في الفضاء مصفياً إلى هذا الصوت الذي يسعى إليه من قبل شهرزاد صافياً نقياً، كأنه صوت ذلك الغدير الذي أحب الملك أن يجلس إليه حين تؤذن الشمس بالغروب، فيسمع إلى غنائه العذب وهو يداعب الحصى، وكأنما أسكره هذا العرف الذي تهديه إليه من شاطئيه جميعاً أنفاس الورد والنرجس والياسمين.

٢

وكان هذا الصوت الحلو يقول في نغمات موسيقية نفاذة إلى القلوب أخاذة للنفوس لم يعرفها الملك حين كانت شهرزاد تقص عليه أحاديثها مستيقظة: بلغني أيها الملك السعيد أن طهمان بن زهمان ملك الجن في حضرموت كانت له فتاة حسنة رائعة الحسن بارعة الجمال، لا تثبت القلوب للحظاتها إذا نظرت، ولا تثبت النفوس لصوتها إذا تكلمت، وكانت على حسنها الرائع وجمالها البارع ذكية القلب نافذة البصيرة، قد قرأت كتب الأولين وعرفت حكمة المحدثين؛ فلم يكن شيء يستغلق عليها، ولم يكن حكيم يثبت لحديثها أو يقدر على مناظرتها، وكان ملوك الجن في أطراف الأرض التي يسكنها الناس وفي أطراف الأرضين التي ليس للناس بها عهد، قد تسامعوا بجمالها وذكائها وما أتيح لها من فطنة وفتنة، وتتسارعوا إلى أبيها الملك طهمان يخطبونها إليه ويعكمونه فيما يخضع لهم من

الممالك والأقاليم: هذا يقدم إليه أقاليم البحر، وهذا يقدم إليه أقاليم البر، وهذا يقدم إليه أقاليم الجو إلى قريب من موقع النجوم، ولكن طهمان بن زهمان كان يجيب هؤلاء الملوك جميًعاً بجواب واحد لا يتغير: «ما كان لي أن أتخفي في أمر فاتنة بغير ما تريده! فأمر فاتنة إلى فاتنة، فأيكم أراد أن يتخذها لنفسه زوجاً فليخطبها إلى نفسها. وأيكم ظفر منها بالرضا فله ملك أبيها مهراً».

ولكن فاتنة كانت غريبة الأطوار، بعيدة الآمال، عظيمة الأطماء، قد زهدت في ملوك الجن جميًعاً واستيأسَت من حياة الجن جميًعاً، فردت خطابها مخذولين مدحورين، لم تمنح واحداً منهم ابتسامة، ولم تُهدِّ إلى واحد منهم نظرة فيها شيء من الرفق، وإنما كان ردها لهم عنيفاً يملؤه السخط والازدراء، ويصدر عن نفس شديدة الكبراء، لا تؤمن بأحد ولا تطمئن لأحد ولا تستريح إلى أحد، نافرة دائمًا، جامحة دائمًا، ساخرة إلى حين كانت تتحدث إلى أبيها، فهو وحده الذي كان يظفر منها بالوجه المشرق والثغر الباسم والنفس الراضية، وكان أبوها أول الأمر معجبًا بهذه الكبراء، فخوراً بهذا الإباء، محباً لهذا الامتناع؛ لأنَّه كان يرفعه فوق ملوك الجن درجات، ولأنَّه كان يمسك عليه ابنته في قصره، وكان يؤثر ابنته بحب لم يجده أب لابنته قط، وكان يؤثر نفسه بقرب هذه الفتاة الفاتنة، وكان يرى في امتناعها على الخاطبين فسحة في الوقت الذي أتيح له فيه أن ينعم بقرب ابنته، والأوقات عند الجن — أيها الملك السعيد — لا تحسب بالساعات والأيام، ولا تحسب بالشهور والأعوام، وإنما تحسب بالقرون المتتابعة والأخ hacات المتلاحقة. فلما مضت آلاف السنين على فاتنة وهي تمتَّع على ملوك الجن وأولي الأباء منهم في البر والبحر والجو، وكانت كلما تتابعت القرون ازدادت حسناً إلى حسن، وجمالاً إلى جمال، وفتنة إلى فتنة؛ أقبل عليها أبوها ذات يوم أو ذات قرن فقال لها: «يا ابنتي، إنك تعلمين أنَّ أباً من الآباء لم يحبب قط ابنته كما أحببتك، كما أني أعلم أنَّ فتاة من الفتيات لم تحبب قط أباها كما أحببتني، وأنك تعلمين أنَّي سعيد بامتناعك على خطابك من ملوك الجن؛ أرى في ذلك تعالىًا عليهم وإرضاء لكبريائي، وأرى في ذلك — قبل كل شيء — حباً منك لي وإيثارًا منك لأبيك بالمردة والحب، ولو استطعت لمضيتك في تشجيعك على هذا الامتناع وإغرائك بهذا الإباء؛ ذلك أحرى أن يكفل لي السعادة وأن يضمن لي النعيم إلى آخر الدهر، ولكن لكل شيء يا ابنتي غاية يقف عندها وأمداً ينتهي إلَيْه، وقد بلغت سعادتي بقربك أقصاها وانتهت إلى غايتها، وأن لنا أن نفترق، فقد علمت يا ابنتي أنَّ أحدهنا من أجيال الجن إذا أتم من عمره خمسة عشر ألفاً من السنين وجب عليه أن يستعد لفارق الأحياء، وأن ينتظر

هذه اللحظة الرهيبة التي يستحيل فيها إلى قبس من نار يمتزج بهذه الجذوة الهائلة التي يدور عليها الكون والتي تنضح حياة الأحياء، وقد بلغت يا ابنتي ستة عشر ألفاً من العمر، وأخذت أحس أنني أتحول ناراً شيئاً فشيئاً، وما أحب أن أترك وحيدة؛ فاختاري لنفسك أحب هؤلاء الملوك إليك أو أقلهم إلى نفسك بغضّاً».



قالت فاتنة: «فإنني لا أحب منهم أحداً، ولا أبغض منهم أحداً، وإنما أزدرיהם جميعاً، وإذا فلن اختار منهم أحداً».

قال طمهان بن زهمان: «فإنني لا أكره يا ابنتي أن تمنعني عليهم وأن تعيشي وحيدة، تدبرين أمر هذا الملك بحكمتك وفطنك لولا أنني قد علمت الآن ما يملأ نفسي قلقاً وخوفاً على قلة ما يعتادني القلق ويبلغني الخوف».

وأدرك شهرزاد الصباح فسكت عن الكلام المباح، وهمَ الملك شهريار أن يتكلم، وهمَ أن يأتي من الحركات ما كان خليقاً أن يتبه النائمة، ولكنه ذكر شيئاً في اللحظة الأخيرة، فانسلَ من الغرفة في هدوء كما انسلَ إليها.

ولم يك ينتهي إلى غرفته حتى دعا إليه قواد الحرس الذين يقومون دون غرفته دون غرفة شهرزاد، فلما مثروا بين يديه قال لهم في صوت مهيب رهيب: «إن بقاء رعوسم في أماكنها رهين بأن يجهل الناس جميماً، والملكة في أولهم، ما كان منذ الليلة، فلا أعلمُ أن أحداً قد عرف خروجي من هذه الغرفة والرجوع إليها، وإنني أقسم لا ينتهي إلى ما يدل على ذلك أو يشير إليه إلا ضربت أعناقكم جميماً، وقد تعلمون أنني لا أ وعد إلا تحقق الوعيد». قالوا جميماً: «فإنا لا نعلم أن مولانا قد خرج من غرفته أو عاد إليها، وما نكاد نفهم من حديث مولانا شيئاً، ولو لا أن علينا أن نأتمن وليس لنا أن نسأل لاستوضحنا مولانا بعض ما يقول!» قال الملك: «أرى أنكم قد فهمتم عني ما أريد، فانصرفوا راشدين». ثم أوى إلى سريره فاستمتع بنوم لذيد طويل، لا تروعه فيه الأحلام، ولا تزعجه عنه أحاديث تلك الأرواح الهامة التي تنطلق في الفضاء، وهي تجمجم ببعض الألفاظ، فيفهم عنها الناس أحياناً ولا يفهمون عنها في أكثر الأحيان، وكان الملك خليقاً أن يمضي في نومه هذا الهدائى اللذيد، لو لا أن أحس على جبهته شيئاً يشبه ما تعود أن يجد حين يستقبل نسيم الصباح حين تدبر النجوم ويبتسم الليل عن كوكب النهار، فلما أحست هذا الروح أفاق من نومه هادئاً موفوراً، وفتح عينيه فرأى شهرزاد قائمة إزاءه وقد وضعت يدها الرُّخْصَة على جبهته وهي تمد إليه نظرة غامضة أحبها ولم يفهم منها شيئاً.

قالت شهرزاد: «أفق أيها الملك السعيد غير مأمور! فقد ارتفع النهار، وأوشكت الشمس أن تزول، وإن وزراءك لينتظرون مقدمك الميمون عليهم. ألم تتأذن فيهم أمس بأنك ستستقبالهم متى أشرقت الأرض بنور ربها!»

قال الملك: «هو ذاك يا أحب الناس إلىَ وأثرهم عندي، ولكنني أرقى من الليلة أرقاً طويلاً، ولم أطعن النوم إلا حين كانت ظلمة الليل أن تتجلى». قالت شهرزاد: «أرقى يا مولاي؟! وما أرقك؟» قال الملك: «تسألين ما أرقني؟!» ثم سكت لحظة همَ في أثنائها أن يتبه شهرزاد ببعض الأمر، ولكنه ذكر شيئاً فرد نفسه إلى رشدتها وقال مبتسمًا: «أرقني الشوق إلى قصصك العذب الجميل».

وكان الواقع من شهريار أن نفسه لم تسلُ عن قصص شهرزاد منذ انتهى في الليلة الواحدة بعد الألف، وإنما كانت تتحرق شوقاً إليه إذا أقبل ميعاده المعهود من الليل،

وتتحرق شوقاً إليه إذا أقبل النهار، وكانت تشتغل بما تشتغل به من شؤون الملك والقصر، ولكنها كانت تحس دائماً كأنها فقدت شيئاً، وكأنها لا تستطيع عنه صبراً، وكأن الأمور لن تستقيم لها إلا أن تجد هذا الشيء الذي فقدته، وكان هذا الشعور الغامض يصحب الملك في جميع لحظاته، وحين كان يأتي ما يأتي من الأمر، وحين يدع ما كان يدع منه، وكان الملك من أجل ذلك منغص الحياة دائماً، ولكنه كان يجاهد نفسه ويختفي أمره ويتكلّف الرضا ويتكلّف الابتسام، وربما تكلّف الضحك أحياناً، وربما أقبل على اللهو فأسرف على نفسه وعلى حاشيته فيه يريد أن ينسى، ولكنه لا يبلغ من ذلك شيئاً، فيمضي في اللهو ليخلّ إلى من حوله أنه سعيد موفور.

وقد بلغ الملك من ذلك ما أراد، فخدع حاشيته كلها، خدع أهل دولته جميعاً، وخيل إلى الذين يقربون منه أو يبعدون عنه أنه أرضي الناس عن الحياة وأسعدتهم بها، إلا اثنين لم يستطع أن يخدعهما ولا أن يغرهما؛ وهما شهريار نفسه، وشهرزاد تلك الساحرة الماهرة الماكرة التي كانت تعلم حق العلم بما يضرّ في نفس الملك من قلق وما يملأ قلبه من حزن، فترثي له حيناً وتشمت به أحياناً، وتخلس إليه بين وقت ووقت نظرات كأنها السهام فيها كثير من العطف، وفيها كثير من القسوة، وفيها كثير من الإغراء الذي يثير الطمع، وفيها كثير من الإباء الذي يملأ النفس يأساً وقنوطاً، ولكنها على ذلك كله لم تتبادل الملك بشيء مما كانت تعلم، وإنما عاشت معه حفية به متلطفة له غامضة مع ذلك أشد الغموض.

فلما كان من تلك الليلة أقبل الملك على غرفته، كئيب النفس، مريض القلب، قد امتلاَ رأسه بخواطر أقل ما توصف به أنها كانت قائمة شديدة القتمة، ولكنها كانت ربما احمرت لحظة قصيرة ثم عادت إلى ظلمتها المظلمة وسودادها المشتق من سواد الليل، فقد كان الملك يائساً أشد اليأس من شهرزاد، قد عجز عن فهمها، وكان ضيقاً أشد الضيق بشهرزاد، قد كلَّ عن احتمال عشرتها، فكان عليها ساخطاً أشد السخط، وكان لها محباً أشد الحب، وكان يهم أحياناً بأن يتقادها شيئاً من الوضوح والجلاء في سيرتها وفي لفظها ولحظها، ويهم أحياناً أخرى أن يتقدم إليها في أن تستأنف ذلك القصص الذي لا يستطيع عنه صبراً، ولكنه كان واثقاً بأنه يستطيع أن يتقادها ما شاء فلن يظفر منها إلا بما تشاء هي، ولن تشاء هي إلا هذا الغموض الذي أصبح لا يطيق له احتمالاً.

هناك كانت خواطر نفسه تصطبغ بحمرة الدم، فقد كان يرى نفسه مقبلًا على شهرزاد يضمها إليه ضمًّا شديداً عنيفاً، ويهدى إليها قبلات محرقة ملتهبة، حتى إذا بلغ

به الحب والهيام أقصاه أغمد خنجره هذا الدقيق في صدرها هذا الناصع الجميل، وتلقى ما يفيض به هذا اليابس من دمها الحار، فلعله أن يشفى ما كان يجد من هذا الظماً الذي لا شفاء له. على أنه كان لا يكاد يلم بهذا الخاطر الأحمر، أو كان هذا الخاطر الأحمر لا يكاد يلم به، حتى تأخذه رعدة عنيفة؛ فقد كان ضيقاً بشهرزاد أشد الضيق، ولكنه كان يجد سعادته في هذا الضيق، ولذته في هذا الألم، وراحة نفسه في تعبها من هذا الغموض، ومن يدري! لعله لو انجلت له نفس شهرزاد وألغيت بينه وبينها الحجب، فرأها واضحة ناصعة كأنها فاق الصبح، لامتلأت نفسه حزنًا وحسرة؛ فإن العشاق لا يكرهون شيئاً كما يكرهون الراحة المطردة، ولا يضيقون بشيء كما يضيقون بهذا الوضوح الجلي، هم في حاجة دائمًا إلى أن يشكوا، فهم في حاجة دائمًا إلى أن يجدوا مصدرًا للشكوى، هم كطلاب المثل العليا، لا يقربون منها إلا لتبعده عنهم، ولو قد بلغوها وانتهوا منها إلى ما يرضيهم لكانوا أشقي الناس بذلك وأشدتهم عليه سخطاً؛ فسعادتهم في الطموح المستمر والجهاد المتصل، لا في بلوغ الغاية والانتهاء إلى الأمد.

بهذا كله وبأكثر من هذا كله كانت نفس شهريار تضطرب حين أوى إلى سريره من تلك الليلة، وقد أرقته هذه الخواطر شيئاً، ولكن النوم لم يلبث أن أسرع إليه واشتمل عليه، ثم سمع فيما يسمع النائمون حين يلم بهم طائف الحلم كأن قاتلأ يقول له: «إنك لضعف مغرور، تُعْنِي نفسك في غير عنا، وتشق عليها في غير مصدر المشقة. أنت مشوق إلى قصص شهرزاد لا تستطيع عنه صبراً، فهل علمت أنها هي أيضًا مشوقة إلى هذا القصص لا تستطيع عنه إعراضًا؟ أنت ضيق بغموض شهرزاد لا تستطيع له احتمالاً، فهل علمت أنها هي أيضًا ضيقة بوضوحك لا تستطيع له استقبالاً؟ أنت ت يريد أن تلهم عن غموض شهرزاد بما تقصد عليك من حديث، وهي أيضًا ت يريد أن تلهم عن وضوحك بما تقصد عليك من أخبار. أنت ترى فيها المرأة الماكرة التي لا تؤمن والتي لا تحتمل عشرتها إلا أن يستعن بها بما يلهي عنها، وهي ترى فيك الرجل القاتل الغادر الذي يلتصق لذته حتى إذا ظفر بها ألغى مصدرها إلقاء، فلا سبيل إلى اتقاء شره إلا بتلهيته والتلهي عنه. أنت مشوق إلى أن تسمع منها وإلا قتلتها، وهي مشوقة إلى أن تتحدث إليك وإلا قتلتك، وقد انتهت أحاديثها إليك في اليقطة، ولتبدأن أحاديثها إليك في النوم، وستجد أنك لذة في هذه الأحاديث، وستجد هي راحة في هذه الأحلام. أفق إذاً من نومك وانذهب إلى غرفتها متلطفًا مترققاً، فإذا بلغتها فاجلس من سريرها غير بعيد وانتظر، فستسمع منها ما يرضيك.»

وقد خُيل إلى شهريار أن طائفه ذاك قد ألقى إليه حديثه هذا الطويل في وقت يعد له طولاً كما تعود الناس أن يتحدث بعضهم إلى بعض، ولكنه لو اطلع لرأى أن طائفه ذاك

لم يلَمْ به إِلَّا لحظة قصيرة جَّداً ألقى إِلَيْهِ حديثه فيها جملة، وآية ذلك أنه أفاق فأنكر هذا الطائف مرة ومرة. ولكنَّه كان كلما عاد إِلَى النوم وعاد النوم إِلَيْهِ، سمع هذا الحديث كله من طائفه فأفاق منكراً لما سمع. يرى أنه لم ينم وإنما أغفى إِغفاءة قصيرة أقصر من أن تطول لهذا الحديث، فلما ألحَّ عليه الطائف بحديثه لم يرَ إِلَّا أن يجرب الأمر ويعبر الرؤيا ويختبر صدق هذا الحلم، فسعيَ إِلَى غرفة شهرزاد فرأى فيها ما رأى وسمع فيها ما سمع، وأمرَ حراسه وأحراس الملكة بما أمرَ، ثم أسلم نفسه إِلَى النوم واطمأنَّ إلى صدره الوثير حتَّى استلَّته منه شهرزاد ببدها الرخصة الناعمة وصوتها العذب الجميل، ووجهها المشرق الوضاء، ونظرتها تلك الغامضة أشدَّ الغموض.

ومع ذلك فقد أنفق شهريار نهاره هادئاً مطمئنَّ النفس رضيَّ البال متصرفاً في أموره، كما تعود أن يفعل قبل أن يعتريه هذا القلق، لا يحسُّ خوفاً ولا إشفاقاً، ولا يشعر أنه فقد شيئاً ولا يجد في التماس هذا الشيء، ولا يضيق عشرة شهرزاد، ولا يكره ما كان يحسُّ فيها من هذه الكبرياء البغيضة التي هي مزاج من الرياء له والقصوة عليه.

ولم يتغير من سيرة شهرزاد شيء؛ فقد كانت كعهد الملك بها غامضة دائِماً حرة اللفظ واللحوظ، ولكنها كانت تشيع من حولها شيئاً غريباً لا يعرف كنهه، ولكنه كان يبعث الأَمن والأَمل والاطمئنان.

٣

فلما كانت الليلة العاشرة بعد الألف أنفق الملك شطرًا من الليل بين وزرائه وندمائه، يخوض معهم في ألوان من الحديث، ويجاذبهم أطراضاً من الله، ثم صرفهم حين تقدم الليل كعادته، وخلا إلى الملكة بعد ذلك فقضى معها شطرًا آخر من الليل، ذاق فيه من النعيم ما شاء حبه لشهرزاد وما شاءت قدرة شهرزاد على فتنة المحبين وإمتاعهم بنعماء الحب وبأسائه جميعاً.

ثم افترق العاشقان بعد أن كاد الليل يبلغ ثلثيه، وثار الملك إلى غرفته، ولكنَّه لم يأْوِ إلى سيره، وإنما لبث ساعة يتردد أينكراً ما كان في الليلة البارحة ويقبل على النوم كأنَّ لم يكن شيء وكان لم يرَ شيئاً، أم ينتظر حتى إذا استيقن أن شهرزاد قد اشتمل عليها الرقاد سعى إلى غرفتها واتخذ من سريرها مجلسه ذاك، لعله يسمع منها تتمة ذلك الحديث، وكان إلى تتمة ذلك الحديث مشوقاً أشد الشوق، وكان في الوقت نفسه عظيم الشك في أن تستقيم له الأمور من ليلته هذه كما استقامت له من ليلته تلك.

وإنه لفي هذا التردد لا يدري أين قد أتي، وإذا النوم يأخذه في مجلسه وقتاً لا يدري أكان طويلاً أم قصيراً، ولكنه يسمع في آخره طائفه ذاك يقول بصوته الهادئ المطمئن: «لن يهلك الإنسان إلا إسرافه على نفسه بالشك والارتياح. إن كنت في حاجة إلى أن تسمع حديث شهرزاد، فأسرع إلى مجلسك من سريرها، فقد آن لها أن تأخذ في الحديث، وما أراك تحب أن تقص بقية خبرها على غرفتها تلك وما فيها من الآثار.»

هناك أفاق شهريار مرتاعاً مذعوراً، ولكنه لم يفكر في شيء ولم يسأل نفسه ولا حرسه عن شيء، وإنما انسلَّ مسرعاً حتى دخل غرفة الملكة واطمأن في مجلسه غير بعيد من تلك النائمة الهائمة التي لم يصدر عنها ما يدل على أنها قد أحست مقدمة، ولم يمض غير قليل من الوقت حتى انتهت إلى سمعه تلك النغمات الحلوة الرشيقية تحمل إليه صوت شهرزاد وهي تقول: «بلغني أيها الملك السعيد أن الملك طهمان بن زهمان قال لابنته فاتنة وهو يحاورها: إنني قد علمت الآن ما يملأ نفسي قلقاً وخوفاً على قلة ما يعتادي القلق ويبلغني الخوف.»

قالت فاتنة وقد ترددت في عينيها دموع حائرة تدفعها الرحمة لأبيها ويمسكها الإشراق عليه، أن يزداد حزنها إلى حزن واكتئاباً إلى اكتئاب: «ويحيى عليك يا أبا! ما عرفتك قبل اليوم حافلاً بالقلق أو معنِّياً بالخوف، وما أرى إلا أنك تفكِّر في ابنتك فتكثر التفكير، ويسوءك أنك حين تفارق هذه الحياة لن ترك لها أحداً ولا نصيراً، ولكنني أحب أن تطيب نفساً وتقر عيناً؛ فإن ابنتك قد تعلمت منك كيف تواجه الحياة وتثبت لخطوبها وتنفذ من مشكلاتها، وإنني منبئتك الآن بما يثير في نفسك القلق ويعيث في قلبك الخوف.» قال أبوها: «وما أنت وذاك يا ابنتي! ومن أين لك العلم بما لم ترتفع به الأنبياء إلا إلى؟! ولم ترتفع به الأنبياء إلى إلا الساعة قبل أن ألقاك بلحظات!» قالت فاتنة: «فاسمع مني قبل كل شيء، فإن يكن ما أنت به صحيحًا كان ذلك خليقاً أن يرد الراحة إلى نفسك والأمن إلى قلبك، وإن يكن ذلك غير صحيح ردتني إلى الصواب ووجهتني من أمري حيث تحب، فلن أعصي لك أمراً، ولن أرد عليك قوله.» قال الملك: «فهات ما عندك يا ابنتي..»

قالت فاتنة: «لقد ارتفعت إليك الأنبياء الساعة بأن هؤلاء الخطيبين الخائبين من ملوك الجن في البر والبحر والجو، قد ساعتهم الخيبة وأسخطهم ربُّ لهم وإعراضي عنهم، ووقع في نفوسهم أني أزدرיהם ولا أقدر مراتبهم حق قدرها، فاستحال حبهم لي بغضاً وتنافسهم في ظاهرًا على، وقد سعى بينهم السفراء، ثم كان بينهم الاتفاق، فأجمعوا رأيهما على أن ينتظروا بك ما بقي من عمرك، وهم يرونـه قصيراً وأراه طويلاً، وقد أزمـعوا إذا

تركت هذه الحياة أن ينصبوا لي الحرب مؤلفين لا مختلفين، ومتظاهرين لا متدابرين، وألا يكفووا عن هذه الحرب حتى يدمروا ملكي تدميرًا، وأيهم ظفر بي فأنا أسيته، يمسكني في قصره كما تمسك الإمام؛ لا يكرمني بالزواج ولا يؤثرني بالحب، وإنما يصب عليًّا من العذاب ألواناً ويسموني من الضيم فنوناً، وقد تقاسموا على ذلك بأغلظ الأيمان وأشدتها إحراجًا، وكتبوا بذلك وثيقة أودعوها مكانًا أميناً حصينًا، هناك في قاع البحر المحيط وراء أعمدة هرقل، وإني لأنظر إلى صحيفتهم هذه كما أنظر إلى وجهك الآن، وإنني لأقرأ ما كتب فيها كما أتبين ملامح وجهك، وإني لقادرة — إن شئت — على أن آتيك بها قبل أن تقوم من مقامك، ولكن على أن تأخذها بيديك وتقرأها، ثم تعيدها إلى لأردها إلى مكانها؛ فقد سبق القضاء بأحداث لا بد أن تقع، وجرى القدر بأمور لا بد من أن تكون.»

قال الملك وقد اضطرب اضطرابًا شديداً، وظهرت على وجهه أمارات الرضا والدهش جمیعاً: «قد كنت أعلم يا ابنتي أن لك كما لأقربك من بنات الجن علمًا بالسحر ونفاذًا فيه وتصرفاً في دقائقه، وكنت أعلم أنك قد تفوقت عليهم في ذلك تفوقاً ظاهراً كما تفوقت عليهم في كل شيء، ولكنني لم أكن أقدر أنك قد بلغت من ذلك هذا المبلغ الذي أراه! فمن أين لك يا ابنتي هذا العلم؟ وكيف انتهيت من السحر إلى هذه المنزلة التي لم يبلغها أحد من فتياننا ولا من فتياتنا؟» قالت: «ذلك خلائق أن يرد نفسك إلى الراحة وقلبك إلى الاطمئنان، فلا تحسب لما دبر هؤلاء الملوك حساباً، ولا تخش عليًّا منهم غائلاً.» قال الملك: «هو ذاك يا ابنتي، ولكنني أريد أن أعرف كيف انتهيت إلى هذه المنزلة من العلم بالسحر والنفوذ إلى أسرار الكون؟» قالت فاتنة: «إنما انتهيت إلى هذه المنزلة لأنني صرفت عن هذه الحياة الباطلة التي يحييها بنات الملوك في ظل آباءهن ناعمات بالعيش الرخيّ، طامعات فيما تتكتشف لهن عنه الأيام، مفكرات فيمن يسعى إليهن محباً أو متلقاً أو خطاباً. صرفت عن هذا كله وعن أشباهه إلى النظر في حكمة الأولين والمحذثين، وإلى كثير من التجربة والاختبار، ما أعرف أن أحداً عُني بمثلها، ولكن أتريد أن تنظر في صحيفة هؤلاء الملوك؟» قال الملك: «وإنك لقادرة على أن تأتي بها؟» قالت فاتنة: «قبل أن يرتد إليك طرفك.» ثم مدت يدها في الهواء ورددتها فإذا فيها علبة صغيرة مربعة من معدن تحمل أختاماً كثيرة، فوضعتها بين يدي الملك، ثم أشارت إليها فإذا هي تفتح دون أن تمس أختامها بفساد ما، ثم تخرج منها قطعة رقيقة من رصاص فتدفعها إلى الملك، وينظر فيها ثم يردها إليها وقد بلغ منه الدهش مبلغه وانتهى السرور به إلى أقصاه، وهو يقول لابنته: «لا بأس عليك من هؤلاء الملوك مهما يدبروا ويقدروا، فما أرى إلا أنك ستدين كيدهم في نحورهم وستلقينهم بشرٌ مما يلقونك به.»

قالت وقد ردت الصحيفة إلى مكانها من العلبة، وأشارت إليها فعادت كهيئتها حين جاءت بها، ثم أخذتها ومدت يدها بها في الفضاء ثم ردت يدها فارغة لأن لم تمسك شيئاً قالـت: «ولأريـتكـ منـ أمرـهـمـ ماـ تحـبـ وـماـ يـكـرهـونـ». قالـ الملكـ: «وـماـ ذـاكـ يـاـ اـبـنـتـيـ؟ـ» قـالـتـ: «إـنـهـ يـأـتـمـرـونـ بـهـذـاـ الـمـلـكـ لـيـدـمـرـوـهـ،ـ وـبـصـاحـبـتـهـ لـيـسـتـذـلـوـهـاـ،ـ وـهـمـ مـنـ أـجـلـ ذـكـ يـهـيـئـونـ لـلـحـرـبـ وـيـجـهـزـونـ لـهـ جـهـاـزاـ لـمـ يـجـهزـهـ أـحـدـ مـنـ قـبـلـ؛ـ فـإـنـ الـحـرـبـ لـاـ يـقـتـلـهـ إـلـاـ الـحـرـبـ،ـ وـإـنـ الـكـيـدـ لـاـ يـفـسـدـ إـلـاـ الـكـيـدـ،ـ وـإـنـ الـحـدـيدـ لـاـ يـفـلـهـ إـلـاـ الـحـدـيدـ كـمـاـ يـقـولـ هـؤـلـاءـ الـجـيلـ مـنـ النـاسـ الـذـيـنـ يـعـيـشـونـ حـوـلـنـاـ فـيـمـاـ يـقـولـونـ مـنـ حـمـاـقـاتـهـمـ».ـ قـالـ الملكـ: «وـإـنـكـ إـذـاـ لـتـرـيـدـيـنـ أـنـ تـسـبـقـيـهـمـ إـلـىـ الـحـرـبـ،ـ وـمـاـ أـنـتـ وـذـاكـ وـهـمـ مـتـفـقـوـنـ فـيـ أـقـطـارـ الـأـرـضـ وـالـبـحـرـ وـالـجـوـ،ـ وـلـاـ قـبـلـ لـكـ بـغـزوـهـ جـمـيـعاـ فـيـ مـسـتـقـرـهـ؟ـ»ـ قـالـتـ: «لـنـ أـغـزوـ أـحـدـاـ فـيـ مـسـتـقـرـهـ،ـ وـلـكـنـيـ سـأـغـزوـهـمـ حـوـلـ هـذـهـ الـمـدـيـنـةـ.ـ سـأـثـيـرـهـمـ إـلـىـ الـحـرـبـ،ـ حـتـىـ إـنـاـ ثـارـوـاـ إـلـيـهـاـ وـانـدـفـعـوـهـ فـيـهـاـ وـأـلـقـواـ بـكـلـ مـاـ أـعـدـوـاـ مـنـ عـدـةـ وـمـاـ حـشـدـوـاـ مـنـ جـنـدـ،ـ رـأـيـتـ كـيـفـ يـكـونـ إـفـنـاءـ الـقـوـةـ،ـ وـكـيـفـ يـكـونـ دـحـرـ الـأـعـدـاءـ.ـ»ـ

وهمَ الملكُ أَنْ يَتَكَلَّمُ، وَلَكِنْ فَاتَتْهُ لَمْ تَمْهَلْهُ، وَإِنَّمَا قَالَتْ: «هُونَ عَلَيْكُ، فَلَنْ أُعْلَمْ عَلَى
أَحَدْ حَرْبًا، بَلْ لَنْ أَسْوَءَ أَحَدًا مِنْهُمْ، وَلَكِنِي مُعْلَنَةٌ إِلَيْهِمْ جَمِيعًا أُنِي قَدْ أَزْمَعْتُ أَنْ أَتَخْذِلَ
مِنْ بَيْنَهُمْ زَوْجًا، وَأَنِي مُخْتَارَةٌ مِنْ بَيْنَهُمْ مَنْ أَسْتَطَعَ أَنْ يَقْهِرَ هَذِهِ الْمَدِينَةَ بِمَا عَنْهُ مِنْ
عَدَدٍ وَعَدَدٍ، فَسَتَرَاهُمْ يَوْمَئِذٍ وَقَدْ جَمَعُوا جَمْعَهُمْ وَحَشِدُوا قَوَاهِمْ وَأَقْبَلُوا يَرِيدُونَ أَنْ يَدْكُوا
هَذَا الْمَلِكَ دَكَّاً، مِنْهُمْ مَنْ لَا يَرِيدُ إِلَّا النَّصْرَ الَّذِي يَتَيحُ لَهُ الظَّفَرُ بِي، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرِيدُ أَبْعَدَ
مِنْ ذَلِكَ وَأَنَّايَ مَرَامًا، يَرِيدُ التَّدْمِيرَ الَّذِي لَا تَدْمِيرُ بَعْدَهُ لِيَخْلُصَ مِنْ قُوَّةِ طَالِمًا فَكَرَ فِي أَنْ
يَخْلُصَ مِنْهَا». قَالَ الْمَلِكُ: «وَإِنَّكَ لِفَاعِلَةٌ هَذَا؟» قَالَتْ: «مَا أَرِيدُ أَنْ تَفَارَقَنِي وَفِي نَفْسِكَ ظَلَّ
مِنْ خَوْفٍ عَلَيَّ أَوْ إِشْفَاقٍ مَا قَدْ يَدْبِرُ هَؤُلَاءِ الْمَلُوكَ لِي مِنْ كِيدٍ».

ثم أشارت بيدها إشارة خفيفة، فما أسرع ما فتحت الأبواب، وأقبل الوزراء ورجال القصر، فأعلنت إلى أبيها بين أيديهم أنها قد غيرت من رأيها، وعدلت عن سيرتها الأولى، وفكرت في أن تتخذ لنفسها زوجاً، ولكنها لا تريد أن يكون زوجها ضعيفاً أو متسلطاً على دولة ضعيفة؛ إنما تريد أن تقرن بأقوى ملوك الجن قوة، وأشدهم أيداً، وأعظمهم بأساً، وأبعدهم صوتاً، وتريد أن تختبر ذلك بنفسها، وأي ملوك الجن استطاع أن يقهر مدینتنا هذه ويدخلها عنوةً، فأنا له زوج وملكي لملكه تبع.

وقد اضطررت نفوس الوزراء ورجال القصر لهذا الحديث حين سمعوه؛ فقد رأوا أهوال الحرب تصب على بلادهم صباً، وأشفقوها مما تجره الحرب عليهم وعلى الرعية من

مكروه، وهو غير واحد منهم أن يراجع الأميرة فيما قالت، ولكنها أشارت إشارة خفيفة فانعقدت الألسنة وغضبت الأبصار، وانحنت الرءوس، وخرج رجال القصر وقد أذعنوا للأمر، وقال وزير الملك: إنه مبلغ تحدي الأميرة ملوك الجن جميعاً من فوره، وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وعاد شهريار إلى غرفته ناعم البال بما سمع، ولكنه كان مضطرب النفس أشد الأضطراب، فلم يكن شهريار كعهد الناس به حين كانت تقصص عليه أحاديث «ألف ليلة وليلة» ثائر النفس، جامح الشهوة، سيء الظن بالمرأة، مستجبياً لغرائزه حين تدعوه إلى ما تدعوه إليه من الخير والشر، إلا أن يلهي عنها بفنون الحديث، وإنما كان رجل آخر قد خلقته شهرزاد خلقاً جديداً.

كان كثير التفكير متصل التروية، لا يرى شيئاً إلا اجتهد في أن يعرف مصدره وغايته، ولا يسمع شيئاً إلا جدًّا في أن يفهم ظاهره وتأويله، وكان هذا الجهد العقلي الطارئ عليه يعنيه أول الأمر، ولكنه اتصل حتى أصبح عادة لشهريار، وإذا هو مفكر دائماً، مقدر دائماً، منفق وقته وجهده في التحليل والتعليق، لا ينصرف عن ذلك إلا حين تشغله شهرزاد بجدها قليلاً وبدعابتها كثيراً، وفي الحق أن شهرزاد لم تكن تشغله عن التفكير، وإنما كانت تريخه منه وقتاً ما، حتى إذا انصرفت عنه ردته إلى التفكير، وإلى التفكير الذي يزداد شدة وعنفاً كلما لقي شهرزاد وانصرف، وقد تركت في نفسه وأمام عقله من الألغاز والأسرار ما يكلفه الجهد المضني دون أن ينفذ إلى أعماقه.

وكان أمر شهريار قد شق على الناس جميعاً؛ فوزراوه ورجال حاشيته قد أنكروا منه هذا الهدوء الذي لا عهد لهم به، وهذه الدقة في القول والعمل جميعاً، وهذه الدقة فيما كان يوجه إليهم من حديث، وقلة الرضا بما كانوا يقدمون إليه من رد؛ لأنه كان يريدهم على أن يصطنعوا الدقة كما يصطنعنها، ويعنوا في التفكير كما يمعن فيهم.

وإنما كانت شهرزاد وحدها هي التي لم تنكر من الملك شيئاً، ولم ينكر منها الملك شيئاً. كانت تقى هدوءه بهدوءه مثله وتفكيره بتفكيره أشد منه تعمقاً، وكانت تسمع أحاديثه الدقيقة فترد عليه بأحاديث أشد منها دقة، حتى استعجمت أحاديثهما أو كادت تستعجم على الذين كانوا يحضرون مجالسهما من أهل القصر ورجال الدولة، وقد شاع بين أولئك وهؤلاء أن طائفًا غريباً قد ألم بالقصر فأفسد على هذين العاشقين أمرهما، فهما يقولان ما لا يفهم، ويحتاجيان بما لا يدرك، والغريب أن الملكة تفهم عن زوجها كل ما يقول، وأن الملك لا يفهم عنها إلا قليلاً! تلك كانت حال شهريار، فليس غريباً إذاً أن يعود

إلى غرفته بعد أن أدرك شهرزاد الصباح فسكت عن الكلام المباح، هادئاً مضطرباً معًا، تجيش في رأسه خواطر غريبة عن حديث فاتنة هذا الذي استأنفته شهرزاد منذ ليلتين. وقد كان شهريار فيما مضى يسمع قصص شهرزاد فيفهمه ويرضى عنه ويلهه بظاهره، لا يتكلف له تأويلاً ولا تعليلاً، ولا يلتمس لألفاظه الواضحة السهلة معاني ملتوية معقدة، ولكنـه الآن يسأل عن فاتنة هذه من تكون وما تكون؟ وهـل هناك سبب بينها وبين شهرزاد؟ وهـل هناك صلة بين قوتها الجامحة التائرة وبين هذه القوة الهائلة التي تتسلط بها شهرزاد على كل من دنا منها أو نـأى عنها؟ وهـل هناك صلة بين ازدراـء فاتنة الملوك الجن وازدراـء شهرزاد الملوك الإنسـنـ، فـما من شـكـ في أنـ شهرزاد لا تـزـدرـيـ مـلـوكـ الإنسـنــ وـحـدهـمـ، ولـكـنـهاـ تـزـدرـيـ الملـوكــ والـرـعـيـةـ جـمـيـعـاـ، وـماـ منـ شـكـ فيـ أنـ شهرـزادـ تـزـدرـيـ شهرـيارـ نفسهـ، وـإـلـاـ لـتـلـقـتـهـ بـنـفـسـ مـشـرـقـةـ مـسـفـرـةـ، وـلـجـنـبـتـهـ هـذـهـ السـيـرـةـ الـغـامـضـةـ وـهـذـهـ الأـحـادـيـثـ الـمـلـتوـيـةـ.

وهـناـ كانـ الدـمـ يـغـليـ فيـ عـرـوـقـ شـهـرـيـارـ، وـتـعـودـ إـلـيـهـ غـرـيزـتـهـ الـأـوـلـىـ عـنـيفـةـ طـاغـيـةـ، فـيـنـهـضـ وـاقـفـاـ وـقـدـ جـاشـتـ فيـ نـفـسـهـ عـوـاطـفـهـ التـائـرـةـ، وـاضـطـربـتـ فيـ رـأـسـهـ خـواـطـرـهـ الـحـمـرـاءـ، وـلـكـنـهـ لـاـ يـلـبـثـ أـنـ تـتـمـثـلـ لـهـ اـبـتـسـامـةـ حـلـوةـ أـهـدـتـهـ إـلـيـهـ شـهـرـزادـ فيـ بـعـضـ الـحـدـيـثـ، أـوـ دـعـابـةـ طـرـيـفـةـ سـاقـتـهـ إـلـيـهـ شـهـرـزادـ فيـ سـاعـةـ مـنـ سـاعـاتـ الـلـهـوـ، أـوـ نـظـرـةـ رـحـيمـةـ نـظرـتـهـ إـلـيـهـ شـهـرـزادـ فيـ لـحظـاتـ الـحـنـانـ، وـإـلـاـ هوـ يـثـوـبـ إـلـىـ نـفـسـهـ هـادـئـاـ وـادـعـاـ كـأـنـهـ الطـفـلـ، نـادـمـاـ عـلـىـ مـاـ قـدـمـ مـنـ سـوـءـ الـظـنـ بـهـذـهـ الـتـيـ لـاـ يـنـبـغـيـ أـنـ تـسـاءـ بـهـ الـظـنـونـ.

وـكـذـلـكـ أـنـفـقـ الـمـلـكـ السـعـيدـ بـقـيـةـ لـيـلـهـ شـقـيـاـ مـحـزـونـاـ مـضـطـربـ النـفـسـ مـخـتـلطـ الـأـمـرـ، لـاـ يـسـتـقـرـ فيـ مـجـلـسـهـ إـلـاـ لـيـنـهـضـ مـنـهـ وـيـمـضـيـ فيـ غـرـفـتـهـ ذـاهـبـاـ آـئـبـاـ، وـرـبـماـ أـشـرـفـ مـنـ النـافـذـةـ فـمـلـأـ صـدـرـهـ مـنـ نـسـيـمـ الـلـلـيـلـ بـمـاـ يـحـمـلـ مـنـ عـطـرـ رـطـبـ لـذـيـذـ، وـمـلـأـ عـيـنـيـهـ مـنـ ظـلـمـةـ الـلـيـلـ بـمـاـ يـضـطـربـ فـيـهـاـ مـنـ ضـوءـ ضـئـيلـ نـحـيلـ، وـلـكـنـ الشـيـءـ الـحـقـ أـنـهـ لـمـ يـأـوـيـ إـلـىـ سـرـيرـهـ وـلـمـ يـفـكـرـ فـيـ أـنـ يـأـوـيـ إـلـيـهـ، إـنـمـاـ قـضـىـ بـقـيـةـ لـيـلـهـ سـائـرـاـ حـائـرـاـ، وـكـانـ خـلـيقـاـ أـنـ يـقـضـيـهـ هـادـئـاـ رـاضـيـاـ بـعـدـ مـاـ سـمـعـ مـنـ قـصـصـ شـهـرـزادـ، وـقـدـ كـانـ يـسـأـلـ نـفـسـهـ عـنـ مـصـدـرـ هـذـهـ الـحـيـرـةـ وـعـنـ عـلـةـ هـذـاـ السـهـادـ، وـكـانـ يـقـدـرـ أـنـهـ يـجـدـ فيـ قـصـصـ شـهـرـزادـ مـاـ كـانـ فـيـ حـاجـةـ إـلـيـهـ مـنـ نـسـيـانـ نـفـسـهـ وـنـسـيـانـ النـاسـ وـالـتـجـرـدـ مـنـ هـذـاـ الـعـالـمـ التـقـيـلـ عـلـيـهـ الـبـغـيـضـ إـلـيـهـ، كـمـاـ كـانـ ذـلـكـ شـأـنـهـ حـينـ كـانـتـ شـهـرـزادـ تـمـتـعـ بـقـصـصـهـ الـيـقـطـانـ، فـأـمـاـ هـذـاـ الـقـصـصـ النـائـمـ فـإـنـهـ لـاـ يـنـقـعـ لـهـ غـلـةـ وـلـاـ يـشـفـيـ لـهـ صـدـىـ، وـإـنـمـاـ يـزـيـدـهـ ظـمـأـ إـلـىـ ظـمـأـ وـتـحرـقـاـ إـلـىـ تـحرـقـ؛ـ فـهـوـ أـشـبـهـ شـيـءـ بـهـذـهـ الـأـشـرـبةـ الـحـادـةـ الـتـيـ يـظـمـأـ إـلـيـهـ الـرـاغـبـونـ فـيـ السـكـرـ، يـظـنـونـ أـنـهـ سـتـرـدـ أـكـبـادـهـ وـتـطـفـيـ

ما في أحشائهم من لهب، ولكنهم لا يتجرعون كثوسها حتى تزداد أكبادهم احترافاً ويزداد اللهب في أجوفهم تلظيًّا وأضطراماً، فهم يتداوون منها بها؛ كما يقول الأعشى، ويستخدمون داءها دواء؛ كما يقول أبو نواس، ولو قد استطاع شهريار أن يجعل ليل شهرزاد كله حلمًا ينطق بهذا الحديث العذب والقصص الجميل لفعل، ولكن من له بذلك وقد قدرت له أحلام صاحبته تقديرًا، وقطرت له أحاديثها تقديرًا؛ فهي تبدأ في موعد موقوت لا تستطيع أن تسبقه، وتنتهي عند أجل محدود لا تستطيع أن تتجاوزه، وقد كان قادرًا على أن يستزيد شهرزاد حين كانت تحدثه مستيقظة، وكان قادرًا أن يستوضحها إن أشكل عليه بعض الحديث، فأما الآن فهو لا يستطيع أن يستزيدوها ولا أن يستوضحها؛ لأنها لا تعرف أنها تقصص عليه شيئاً، ولا تعقل مما تقصص عليه شيئاً. بل هو لا يستطيع أن يستوضحها؛ لأنها لا إلى هذه الأحاديث التي تلقيها إليه أحلام شهرزاد، فقد قال له طائفه فيما قال: «احذر أن تتبهها من قريب أو بعيد إلى هذا القصص؛ فإنك إن تفعل لم تزد على أن ترد عنها الأحلام وتحرم نفسك ما بقي لها من هذه اللذة المختسسة.»

وكان الضيق قد بلغ بشهريار غايتها حين بلغت أذنيه أصوات الطير المستيقظة وهي تستقبل النهار فرحة مرحة، وتتلقى ضوء الشمس مبتهجة به أعظم الابتهاج نشطة له أشد النشاط، وقد وقعت هذه الأصوات العذبة المختلفة من نفس الملك أحسن وقع، فثاب إلى قلبه المذعور شيء من أمن وإلى نفسه اليائسة شيء من رجاء، وإذا هو يجد حاجة قوية إلى أن يغتندي مع الطير، ويسلم نفسه إلى هذه الطبيعة الحررة المرحة المبتهجة، فيفنى فيها ويصبح جزءاً من أجزائها وعنصرًا من عناصرها ساعة أو ساعات، وهو هو ذا يسعى إلى طفل من أطnav الغرفة، فيشرف منه على هذه الجنة المطيفة بالقصر، والتي لا يبلغ الطرف أرجاءها مهما يمتد ومن أي ناحية يمتد، وإذا هو يفتح صدره للنسيم العذب، وعينه للضوء المشرق، وسمعه للأصوات التي يتغنى بها الفضاء العريض، وإذا هو ينسى نفسه أو يكاد ينساها، لا يكاد يشعر إلا بأنه يخطو خطوات متباينة يتبع بعضها بعضاً في أناة وبطء، وقد ذهل عما حوله وذهل عنه ما حوله، وهو يهبط درجات السلم رزياناً متبايناً يكاد يتزاحم التمل السكران، وهو يسعى لا يكاد يحس خطاه لأن قدميه لا تمسان الأرض، وإنما تتنقلان على هذا البساط الكثيف الذي نسجه الطبيعة ونسجه معها البستانيون من سندس العشب، وما يزال كذلك يسعى أمامه لا يُلوّي على شيء حتى يحس في مثل الحلم كأنه ينطعف عن غير إرادة إلى اليمين؛ لأن طريقه كانت تقضي الانعطاف إلى يمين، فيمضي ويمضي، وهو يحس في نفسه حسرة ضئيلة خفية؛ لأنه لا

يستطيع أن يستمتع بما حوله من فنون الزهر والشجر، وقد تعود حين كان يسعى في جنته هذه ألا يتقدم إلا ليتأخر وألا يمضي إلا ليقف، وكانت له وقوفات طويلة عند هذه الألوان من الزهر الذي نُسق أجمل تنسيق وأروعه، يحذق في هذه الزهرة ويمتحن هذا النجم، وربما تحدث إلى هذا البستانى أو ذاك سائلاً حيناً وأمراً آخر، ولكنه في هذا اليوم يمضي أمامه لا يُلوّي على شيء ولا يفك في شيء ولا يقف عند شيء.

وليس من المحقق أنه كان يرى هؤلاء البستانيين الذين كانوا ينهضون إذا رأوه مقبلًا من بعيد، فيجيرون وينتظرون أن يلقى إليهم السؤال أو يصدر إليهم الأمر، يبتعدون بذلك في دخائل ضمائرهم ويتمون به الأماني.

ولكن الملك كان يمر بهم ذاهلاً عنهم، أو كان ينظر إليهم نظره إلى التماشيل القائمة التي لم يكن ينتظر أن تسمع منه كلامًا أو ترد عليه رجع حديث، وكان هؤلاء البستانيون يُسقطُ في أيديهم إذا مر بهم الملك غافلًا عنهم غير مكترث بهم، فيردون أنفسهم إلى التعزي عن هذه الابتسامة التي كانوا ينتظرونها، وعن هذا الأمل الذي كانوا يداعبونه، ويقول بعضهم لبعض: «ما بال ملوكنا كئيبًا محزوناً منذ اليوم؟»

ولكن ملكهم لم يكن كئيبًا ولا محزونًا، وإنما كان نشوان ثملًا قد صرفته الحياة عن الأحياء وصرفته الطبيعة عن الناس والأشياء؛ فهو يمضي أمامهم لا يُلوّي على شيء، حتى إذا بلغ من جنته مكانًا بعينه انحرف إلى شماليه فمضى في ممر ضيق ضئيل تحف به من جانبيه أشجار ضخام في الفضاء طوال في السماء، قد تضامت غصونها واختلطت أوراقها حتى انعقد منها سقف كثيف لا ينفذ منه ضوء الشمس إلا ضئيلاً هزيلًا بعد مشقة شافة وجهد جهيد، والملك يمضي أمامه في هذا الممر الضيق كأنه النفق، حتى إذا مشى غير قليل انفرجت هذه الشجرات الملتقة المتراكفة قليلاً قليلاً، حتى جعلت بينها مكانًا رحباً فسيحاً قد فرش بالعشب المتكاثف، وقامت في أطرافه نجوم وأزهار لاذت بهذه الأشجار الضخام الطوال كأنما تحتمي بضخامتها وطولها من العاديات. هناك وقف الملك فأطال الوقوف، وتتنفس هذا الهواء العذب الرطب فأطالت التنفس، ثم جلس على الأرض متهاالگا متثاقلاً، ثم أسلم نفسه إلى ما حوله، فلم يشعر بشيء ولم يحس شيئاً، ولكنه يفيق من نومه مدعورًا أو كالمذعور؛ فقد سمع صوتاً حلواً يشبه صوت الماء وهو يتحدر في غديره ذاك بين النرجس والياسمين، لولا أن في هذا الصوت حياة لم يتعد أن يجدها في خرير الغدير، ولو لا أن في هذا الصوت تقطعاً وتكتساً وتهالكاً، لم يتعد أن يجد مثله في تحدر الماء بين النرجس والياسمين، ويفتح الملك عينيه، فيرى فتنة لا تلبث أن تملك عليه سمعه وبصره وقلبه وعقله جميعاً.

هذه شهرزاد قائمة منه غير بعيد، تنظر إليه نظرات فيها الحنان والمكر، وهي مغرفقة في ضحك هادئ عذب يرتفع له صدرها وينخفض، ويُفْتَّن وجهها بغشاء من الجمال الرائع ليس إلى تصويره من سبيل، وهذا الملك ينظر إليها مسحوراً مبهوراً، وهي تضحك من ذهوله وحيرته، ولكنه ينهض خفيقاً ويسعى سريعاً، حتى إذا بلغها أو كاد جثاً أمامها غاضباً بصره إلى الأرض رافعاً يديه إلى السماء كأنه المؤمن الذي يتقرب إلى التمثال، وهي تضع يدها على رأسه ضاحكة كأنها تبارك عليه، ولكنها لا تثبت أن تستحيل إلى حنان خالص، وإذا هي تميل إليه مترفقة فتضخ على جبهته قبلة حلوة حارة طويلة، ولو أنها تححدث في تلك اللحظة لأحس شهريار في صوتها تهدج العبرات التي تريد أن تندفع من العيون، ولكنها الإرادة القوية تمسكها فيظهر أثر هذا الصراع في الصوت المحبس والألفاظ التي لا تبين، ولكنها لم تقل شيئاً، وإنما استقام قدمها المعتدل وامتدت يدها الرَّحْصَة إلى الملك فأنهضته صامتة، واستجاب لها الملك صامتاً طيعاً، فمضت به خطوات إلى نشر من الأرض قريب يكسوه العشب فأجلسته وجلست إلى جانبه، وأحاطت عنقه بيدها ثم أمالته في رفق حتى وضعت رأسه على كتفها، وظللت تنظر إليه، وظل ينضر إليها وهمما مغرقان في صمت عميق، ثم يسمعها شهريار تححدث إليه في صوت هادئ وادع وهي تقول له: «ألم يَأْنِ لَنَا بَعْدَ أَنْ نَهْبَطْ مِنَ السَّمَاءِ وَأَنْ نَنْزَلْ إِلَى الْأَرْضِ فَنَعِيشْ فِيهَا مَعَ النَّاسِ؟»

ولكن شهريار لا يجيئها، وإنما تتحدر من عينيه دمعتان هادئتان تمسحهما شهرزاد في رفق، ثم تتعطف إلى الملك فتقبل جبهته مرة أخرى، ثم تقيمه حتى إذا استوى في مجلسه جعلت تُمْرُّ أصابعها في شعره رقيقة به باسمة له مطيلة النظر إليه صامتة مع ذلك لا تقول شيئاً، وكأن هذا العطف الصامت الحار قد بعث الحياة والنشاط في قلب الملك وجسمه وفي عقل الملك وإرادته؛ فهو يرفع رأسه إلى شهرزاد ويسألهما في صوت كأنه يأتي من بعيد: «ألا تنبئيني آخر الأمر: من أنت؟ وماذا تريدين؟» قالت وقد استردت نشاطها ومرحها وانحرس عنها العطف والحنان كما ينحسر البحر عن الساحل ساعة الجزر وبدت مداعبة شموسًا: «من أنا؟ أنا شهرزاد التي أمتلك بقصصها أعواماً لأنها كانت خائفة منك، والتي تمتلك بحبها الآن لأنها واثقة بك مطمئنة إليك، وماذا أريد؟ أريد أن أرى مولاي الملك راضياً سعيداً ناعماً بالرخى العيش مبتسماً للحياة كما تبتسم له الحياة» ولم يك شهريار يسمع هذا الصوت الحلو يحمل إليه هذه الألفاظ الساحرة حتى أطرق إلى الأرض غاضباً بصره متھالكاً، كأنه الطائر القوي، همَّ أن يرتفع في أجواء



السماء فأثقلته قوة قاهرة لم يستطع لها مقاومة، فارتدى إلى الأرض وجثم عليها مذعوراً، وتدنو منه شهرزاد فتمسح على رأسه وتنظر في وجهه وترسل إليه هذه الابتسامة الغامضة، فيتلقاها مشفقاً غيظاً في وقت واحد، ثم يظلان على هذا الوضع لحظات، وإذا هو يسألها: «ألا تجلسين!» فتستجيب له كما تستجيب الأمة الخاضعة للسيد المسلط، فلا يزيد هذه إلا حيرة وغيظاً، وهو يعيد سؤاله في صوته الهادئ الذي كانه يأتي من بعيد: «ألا تنبئينني آخر الأمر من أنت؟ وماذا تريدين؟» فتجيبه هذه المرة في صوت جادٌ فيه كثير من الرحمة والحنان: «من أنا؟! أنا شهرزاد التي أحبتك قبل أن تعرفك كما لم تحب فتاة رجلاً قط، والتي خافتكم حين عرفتكم خوفاً لم يخفه إنسان إنساناً قط، والتي زفت إليك تتحدى الموت وتتحدى السلطان وتتحدى الحب والبغض جميعاً، فبلغت من نفسك هذه المنزلة التي تراها أو التي لا تراها، ثم أصبحت الآن وهي لا تفكك إلا فيك ولا تفكك إلا بك ولا تفكك إلا لك. ماذا أريد؟! أريد أن تكون سعيداً موفوراً، ولكنني لا أعرف كيف

أجعلك سعيداً موفوراً. من أنا؟! أنا من تحب أن ترى في أي ساعة من ساعات النهار، وفي أي ساعة من ساعات الليل. أنا أمك حين تحتاج إلى حنان الأم، وأنا أختك حين تحتاج إلى مودة الأخت، وأنا ابنتك حين تحتاج إلى بر البنت، وأنا زوجك حين تحتاج إلى عطف الزوج، وأنا خليلتك حين تحتاج إلى مرح الخليلة، أنا كل هذا، وماذا أريد؟! أريد ما تريده الأم لابنها، وما تريده الأخت لأختها، وما تريده البنت لأبيها، وما تريده الزوج لزوجها الوفي، وما تريده العشيقه لعشيقها المفتون، وقد سألتني فألحت على في السؤال، أفتاذن لي في أن أسألك؟» فيرفع الملك إليها بصره كالمنظر لما تقول، ولكنها تتضاحك وتتماجن وتسأله: «كيف أراك في هذا المكان من جنة القصر حين كان ينبغي أن أراك في غرفتك تتهيأ للخروج إلى حيث تستقبل وزراءك وتصرّف أمور ملكك، أو أراك قد خرجت مبكراً فأقبلت على شئون الدولة تصرفها حفيّاً بها مكبّاً عليها. وكيف أذنت لنفسك في أن تنسلّ من غرفتك على هذا النحو الذي لم يعتد الملوك، وعلى هذا النحو الذي لم يألفه المحبون؟ فكانت لم تؤذن أحداً من رجال حاشيتك بأنك مقبل على هذا المكان القصي. ولو لا أنك مراقب في قصرك كما يراقب أشد الناس عداء للدولة وخطراً عليها، لوجدت مشقة كل المشقة في الاهداء إلى مكانك هذا، ثم أنت لم تؤذني ولم تؤذن أحداً من وصائي بسعيك إلى هذا المكان، وقد كنت خليقاً أن تذكر أني لا أكاد أنهض من مضجعي وأفرغ من زينتي حتى أسعى إلى غرفتك لتكون أول من يراني ولأكون أول من يراك. أترى إلى ذنبك يا مولاي! إنها عظيمة جسيمة، وإنك خليق أن تستغفر منها إلى أمتك هذه التي تعفيك من الاعتذار وتستغفرك من تحدثها إليك في هذه اللهجة القاسية التي إن صورت شيئاً فإنما تصور الحب والإشفاق والحنان.»

ثم تضمه إليها وهي تقول: «حدثني الآن كيف انتهيت إلى هذا المكان؟! أم تريد أن أحدثك أنا بهذا الحديث؟» قال شهريار: «وإنك لتعلمك كيف انتهيت إلى هذا المكان؟» قالت وقد عادت إلى ابتسامها الغامض وصوتها الغريب: «إنك يا مولاي ملك عظيم، ولكنك على ذلك تمر بأطوار الطفل الصغير، وأي عسر في أن أقص عليك بدء حديثك؟ لقد أيقظتك أمس حين أوشكت الشمس أن تزول، وأنبأتك بأنك قضيت الليل مؤرّقاً مسهدًا، ولقد اجتهدت في أن أسرّي عنك وأرددك إلى ما ينبغي لك من الدعة والرضا، وخلي إلى أنني تركتك أمس راضياً محبوراً، ولكني استيقظت مبكراً وأسرعت إلى غرفتك، فلما لم أرك فيها ورأيت بابها إلى الطنف مفتوحاً، استيقنت أنك قد أرقت من ليتك هذه أكثر مما أرقت في ليتك تلك، واستيقنت أنك قد ضقت بغرفتك فخرجت منها مع الصبح وأخذت طريقك إلى

مكان عزلتك هذا، فتبعتك حتى ألفيت مغرقاً في هذا النوم الذي أغراه بك الجهد والإعياء. أليس هذا كل حديثك يا مولاي؟! أمحتاجة أنا إلى ذكاء الرجال أو إلى كيد النساء لأعلم علمه ثم لأعيده عليك كما كان؟»

وانتظرت أن يجيبها شهريار، ولكنه لم يُحِرْ جواباً، فعادت إليه تسأله متطلفة: أمستخدنون نحن من هذه القصة؟ إنها لا تدل على براءة ولا على مهارة ولا على قوة وأيد، وإنما تدل على ضعف وتهالك وانحلال في الأعصاب، ومن أجل ذلك فكرت في أن أطّب لك حتى أشفيك من هذه العلة التي لا أعرفها وما أراك تعرفها، ولكنني سأبرئك منها على كل حال.» قال مبتسمًا: «وكيف تبرئيني من داء لا تعرفينه؟» قالت في صوت المرحة المتمردة: «إلّي طبيبة لا كالأطباء، أدوافي ما أجهل وأدوافي ما أعرف، وربما كنت على علاج الداء المجهول أقدر مني على علاج الداء المعروف.» قال وقد اتسع ابتسامه وأوشك أن يكون ضحّكاً: «وكيف ذاك؟» قالت: «ذاك أني سأقلب نفسك على جميع جوهاها، وسأرسل عليها من نفسي قوة لا تعرفها ولا تقدّرها، وسأردد عليك ما فقدت من بأس وأيد. إنك لا تعرفني. ألسنت تقول لي ذلك في كل وقت؟ قال شهريار حازماً: «فهذه علتي». قالت: «سأبرئك منها.» قال: «ستعرفييني نفسك إدّا؟» قالت في كثير من الدل: «سأعْرِّفك منها ما ينبغي أن تعرف ل تسترد قوتك ونشاطك؛ ولتنعنى برعيتك هذه التي أخذت تهملها منذ حين. على أني لا أدري لماذا تريد أن تعرفيني! أضقت بحبي إلى هذا الحد؟»

فنظر إليها حائراً كأنه لم يفهم عنها. قالت في دلال وحدة: «لا تنظر إلى هذه النظارات الحائرة! إنك ملك عظيم تدبر أمور رعية لا تقاد تحصى، وقد بلغت سنك هذه التي لا يبلغها الرجل حتى يكون قد خبر الدهر وانتفع بتجاربه. ألم تعلم بعد أن الحب لا يقتنه شيء كما تقتله المعرفة؟ إن كنت زاهداً في حبي ضيقاً به، فإلّي أستطيع أن أشفيك من علتك فأظهرك من نفسك على جميع أثناها وأحنانها، ويؤمنك تصرف عني وترهد فيَّ، ومن يدرّي؟! لعلك تلحقني بأولئك النساء اللاتي أرسلتهن إلى العالم الآخر، ولكنني أنا لم أزهد في حبك ولم أزهد في الحياة بعد، وإذاً فلن أمكنك من الانصراف عنِي والزهد فيَّ، وإذاً فستسعى دائمًا إلى أن تعرفي، وسيخفي دائمًا عليك مني بعض الشيء، وستحببني ما دمت تجهلني، وستجد من هذه الحرب بين الحب والمعرفة قوة تحبب إليك الحياة وترغبك فيها، ولكن أين نحن الآن من النهار؟ وأين نحن الآن من شؤون الملك؟ وأين نحن الآن من شؤون أنفسنا؟ ألا تحس ألم الجوع؟ إلّي لا أكاد أستقر من شدة ما أجد من هذا الألم، ولكن انتظر قليلاً.» ثم تضرب إحدى يديها بال الأخرى مرة ومرة، وإذا الخدم

يسعون وهم يحملون إلى الملك والملكة ما يحتاجان إليه من طعام وشراب، وبهم أن يتكلم ولكنها تسبقه إلى الكلام، فتقول ضاحكة: «أنت أسيري منذ الآن يا مولاي، لن أفارقك حتى تفارقك علتك. إن غرفتك حرام عليك، ستنفق الليل في غرفتي، سأسلنك إلى النوم وديعة محفوظة، وسأسترك من النوم كما يسترد المودع وديعته، وسائلزمك حتى تضرع إلىّ في أن أريحك من نفسي ساعة أو بعض ساعة.» قالت ذلك وانحنت إليه فقبّلت بين عينيه والخدم ينظرون وينظمون المائدة، ولكن شهريار لم يقل شيئاً، ولو كشف لنا عن نفسه لما عرفنا أكان سعيداً أم كان شقياً، فقد كان أحب شيء إليه أن يكون أسير شهرزاد، ولكنه كان يشوق أن تسلمه شهرزاد إلى النوم وأن تأمر النوم فيحتفظ به حتى يرده إليها وتقوته بذلك أحلام شهرزاد.

على أنه لم يك يعود إلى طبيعته المألوفة التي رده إليها إقدامه على الطعام والشراب والحديث حتى نسي الليل وسهوده وجوده ووطئ نفسه مسروراً محبوراً، على أن ساعة مع شهرزاد خير من كل أيامه تلك التي كان يحييها منفرداً أو كالمفرد، لا يلقى زوجه إلا بمقدار وعلى ميعاد، حسب ما تقتضيه ظروف الحياة للملوك الذين أثقلت قصورهم التقاليد التي تراكم بعضها فوق بعض على مر الدهور واختلاف الأجيال، وما يمنعه وقد فتحت له شهرزاد هذا الباب الذي لم يكن ينتظر أن يفتح له، ما يمنعه أن يتمارس ويتكلف العلة ويلقي إلى وزيره مقاليد الدولة يدبّرها كما يشاء أو كما يستطيع، حتى يُبلّ هو من مرضه أو من تمارضه! ما يمنعه أن يتتكلف العلة ليخلص لشهرزاد ما دامت هي ت يريد أن تخلص له! ولكن ما الذي حملها على أن تلقاه بهذا العطف الذي لم يتعوده، وبهذا الحنان الذي لم يألفه! أتراها صادقة فيما تظهر من ذلك أم تراها متلكفة؟! وما الذي يدعوها إلى هذا التكفل، وهي تعلم حق العلم أنها مستأثره بقلب الملك وعقله تأمرهما بما تشاء دون أن تخشى منها امتيازاً عليها، وتنهاهما عما تشاء دون أن تخشى منها خلافاً، وهي أكرم على نفسها وأرفع في نفسها من أن تتخلق رجلاً أو تتلطّف له مهما يكن؟ هي إذاً لا تتتكلف هذه العواطف، ولكنها مع ذلك لم تألف هذه العواطف ولم يألفها منها شهريار! وإنما هي غامضة دائماً، مدللة دائماً، لا تدّنيه إلا لتقصيه، ولا تلطّف به إلا لتعنف عليه، أفتراها قد وصلت إلى دخيلة نفسه، ووقفت على جلية أمره، وعرفت أنه مريض حقاً، وأشافت عليه من هذا المرض؛ فهي تريد صادقة أن تبره وترفق به وتطبّ علته حتى يبرأ.

كل ذلك ممكן وغير ذلك ممكّن، سواء منه ما عرفه شهريار وما لم يعرفه، فقد استقر في نفسه أن صاحبته بحر لا يسرّ غوره، وليل لا تنجلّي ظلمه، ولغز لا تحل

مشكلاته، وهو على ذلك ناعم بعشرتها سعيد بما تحمله عليه من الرضا والسطح، ومن اللذة والألم، ومن النعيم والبؤس، ومن الظفر والحرمان. فلينتهز إذاً هذه الفرصة التي هيئت له، ولينعم بهذه السعادة التي تعرض عليه، ولعيش في ظل شهرزاد ناعماً بائساً وسعيداً شقياً كما تعيش رعيته في ظله هو ناعمة بائسة وسعيدة شقية. وقد كان يظن أنه الملك، وأن كلمته هي العليا، وأن أمره هو المطاع الذي لا معقب له، فقد ظهر له الآن أن هناك ملكاً أقوى منه وأعظم سلطاناً، وأنه هو الرعية لهذا الملك، وهل شهرزاد آخر الأمر إلا قوة مسلطة عليه تصرّفه كما تريد وتتبرأ أمره كما تهوى دون أن يستطيع امتناناً عليها أو إباء؟!

وذلك أنفق شهريار نهاره الأول كالطفل خاضعاً لسلطان أمه الحنون، تأمره فيأتمر وتنهاه فينتهي، واجداً في ذلك اللذة كل اللذة والنعيم كل النعيم، وكانت شهرزاد رفيقة به إلى أقصى غایات الرفق، محبة له إلى بعد آماد الحب، تصرفه في فنون الهزل والجد، وتنقله في أطوار المرح والهدوء، حتى إذا ضرب الليل سرادقه المظلم الكثيف على الكون أوت به إلى غرفة من غرفاتها، فتحدثت إليه فنوناً من الحديث، وأسمعته ألواناً من الغناء وضروبًا من الموسيقى، ثم أقبلت إليه آخر الأمر باسمة هادئة وقالت له في صوت متكسر بعض التكسر فاتر بعض الفتور: «قد آن للطفل أن يستريح إلى النوم فيما أظن، هلم إلى مضجعك يا مولاي». ثم أخذت بيده ومضت وهو يتبعها مستسلماً محباً لهذا الاستسلام منكراً له في قراره نفسه، سائلاً عن إرادته أين ندد، وعن قوته أين شردت، راجياً لا تعود إليه هذه الإرادة وألا ترد إليه هذه القوة، فمن الخير أن ينعم الإنسان «بإجازة» يستريح فيها من إرادته وقوته ومن ملكات نفسه كلها، وقد أذن لشهرزاد بهذه الإجازة، فهو ينعم بها غارقاً في لذاتها إلى أذنيه، وهو هو ذا قد أوى إلى سريره، وهو هي هذه شهرزاد تسوي لها الوسائل حتى تطمئن إلى أنه قد استراح في مضجعه، ثم تنصرف عنه لنفسها شيئاً، ثم تعود إلى الغرفة فتمضي فيها ذاهبة آئية مختلسة نظرة بين حين وحين إلى طفليها هذا الكبير. حتى إذا رأته قد أطمأن إلى النوم ومضى معه في طرقه المجهولة، أوت هي إلى سريرها فغاصت فيه غوصاً ودعت النوم، فما أسرع ما استجاب لها وشمل الغرفة هدوء متصل.

أطال هذا الهدوء أم قصر؟ لا سبيل إلى معرفة ذلك؛ فقد كان الليل قد قطع في طريقه شوطاً بعيداً قبل أن ينام العاشقان، ولكن شهريار يتتبه من نومه هادئاً مطمئناً لا يقول شيئاً ولا يأيّ حركة، وإنما يمد سمعه نحو سرير شهرزاد فقد ألمَ به طائفه ذاك فمس

كتفه مسّا رفيقاً وألقى في رُوعه هذه الجملة: «أفق ولا تحدث حسّا، فقد آن أن تستمع لحديث شهرزاد.»

ولا يطول انتظار الملك، لكنه يسمع قائلاً يقول: «فلما كانت الليلة الحادية عشرة بعد الألف قالت شهرزاد ...» ثم ينقطع هذا الصوت، ويبلغ أذن الملك صوت شهرزاد رقيقًا رشيقًا وهي تقول: «بلغني أيها الملك السعيد أن وزير الملك طهمان بن زهمان اضطر إلى إخفاء ما في نفسه من الخوف على المدينة وأهلها مما أزمعت فاتنة، وخرج وهو يقول للملك: «إنه مبلغ تحدي الأميرة ملوك الجن جميّعاً».»

فلما خلا الملك إلى ابنته قال لها في صوت يملؤه الحنان: «فستاندين لي في أن أحدهك بما أبَيْت أن تستمعيه من الوزراء ورجال القصر؛ فإنهم يا ابنتي قد أشفقوا على أنفسهم ومدينتهم وأهل المملكة جميّعاً من هول هذه الحرب التي تتبعجلينها، وهم يعلمون أن أهواه الحرب لن تبلغك ولن تبلغني، فإن لك ولني من ملكتنا عصمة ووزرًا، ولكنها ستبلغهم هم، ستعرّض شبابهم للموت، وستعرّض أطفالهم للتيت، وستعرّض شيوخهم للبؤس والثكل، وستعرّض نسائهم للتألم والشقاء، وستعرّض أموالهم للفاء، ستتصبّع عليهم البؤس صباً في ألوانه المختلفة التي لم نذوقها ولا ينتظر أن نذوقها، ولكننا نعلم ما نعلم من أمرها بما نقرأ في الكتب وما نسمع في الأحاديث، وقلما نراهارأي العين أو نحسها إحساساً مباشراً، فنحن لا نتنزل إلى مخالطة الرعية لنشهدها حين تتبهج وحين تبتهج وحين يمسها جناح من لين أو يصيبها عارض من شدة، فلهم العذر يا ابنتي إن ارتعاعوا أو التاععوا أو أشفقوا من هذا المكروره الذي يوشك أن يلم بهم فلا يبقي عليهم، وفي قلوبنا نحن الرجال قسوة، وفي أكبادنا غلظ، وفي طبائعنا شدة وعنف، ولكن قلوب النساء رحيمة، وأكبادهن رقيقة، وطبعهن لينة صافية، فإذا دبر ملوك الجن ما دبروا وقدروا أن ينصبوا لنا الحرب، فقد كنت أنا خليقاً أن أقاهم بهذه الشدة، وأن أنصب لهم حرباً كالتي يريدون أن ينصبواها لي، وأن أكيد لهم كما يكيدون لي، وكانت أنت خليقة يا ابنتي أن تشفعي من هذا الهول، وأن ترفقي بالرعية، وأن تقترحي عليًّا وعلى الوزراء من وسائل السلام ما يرد عن الناس هذا المكروره، ولكنهم يا ابنتي قد رأوني صامتاً لا آمر ولا أنهى، ورأوك مقدمة على هذا الأمر العظيم لا تحسبين حساباً لنعيهم الضائع وبؤسهم الواقع، فأنكروا في نفوسهم وهمُوا أن يجهروا بما أضمرت قلوبهم، ولكنهم خافوك وخافوني،

فأذعنوا للأمر على كره منهم ولم يقولوا شيئاً، أو هم خافوك أنت ولم يخافونني أنا! فقد أصبحت شيئاً لا يُخاف، وإنما أنا هامة اليوم أو غد كما يقول حمقى الناس من حولنا، وجذوة اليوم أو غد كما ينبغي أن نقول نحن في لغتنا، ومهمما يكن من شيء فإنهم خافوك يا ابنتي؛ لأن أمرهم إليك غداً أو بعد غد، ولم يخافونني أنا لأنني متصل بالماضي الذي ليس إلى رجوعه من سبيل».

وهمت فاتنة أن ترد على أبيها، ولكنه مضى في حديثه متوفقاً فقال: «ويظهر يا ابنتي أن الشيخوخة تدinya من العقل أو تدinya من الجنون أو تدinya منها جميماً، ولست أدرى أحَرْمُ ما يضطرب في نفسي من الخواطر أم حمق؟ ولكنني ملقيه إليك على علاته، فخذيه مني كما هو، وافعلي به بعد ذلك ما تريدين؛ فقد وصلت إلى السن التي لا أستطيع أو لا أريد أن أبرم فيها أمراً، فيم يدبِّر ملوك الجن لنا هذا الكيد؟ وفيم ينصبون لنا هذه الحرب؟ وفيم تلقين كيدهم بمثله وتهيئن لحربهم حرباً مثلها؟ في شيء لا يعني رعاياهم ولا رعيتنا من قريب أو بعيد. هم يحبونك ويتأففون فيك، وأنت تزدرينهم وتترفعين عنهم وتمتنعين عليهم، وماذا يعني رعايانا البائسين مما نجد من الحب والبغض، وما نحس من العشق والهياج! إنهم لا ينعمون حين ننعم، ولا يبتهرون حين نبتئس؛ وإنما تجري حظوظهم من النعيم والبؤس على قوانين لا صلة بينها وبين ما نستمتع به من سعادة، أو نرჯح تحته من شقاء، ومن القسوة يا ابنتي أن ننعم وهم بائسون، وأن نقوى وهم ضعفاء، وتُثري وهم فقراء، نستمد من بؤسهم نعيمًا، ومن ضعفهم قوة، ومن فقرهم ثراء، فكيف نضحي بهم في سبيل أهوائنا وشهواتنا وعواطف قلوبنا، ونزوات نفوسنا! لو رفقت بهم يا ابنتي لجَنَّبْتُهم هذه الحرب التي يدبِّرها عشاقك، وهذه الحرب التي تدبرينها أنت لهؤلاء العشاق، ولا خارت لنفسك من بين هؤلاء الملوك زوجاً تنعمين بعشرته وينعم بعشرتك، ومن يدري لعل رعيتكما أن تصيب أطرافاً من هذا النعيم، ولكنك يا ابنتي لا تجُنِّبْنِهم حرباً، وإنما تدفعينهم إليها دفعاً كما تدفع الوقود إلى النار المضطربة التي لا تشبع مما يقدم لها من الحطب، وأمرك في ذلك كأمر عشاقك جميماً، كلّم يتبع هواه الجامح، ويركب شهوته المندفعة، ويضحي في سبيل نفسه بكل شيء وبكل حي. ليس هذا حقاً، وليس هذا عدلاً، وقد كنت أعجب آنفًا بما أوتيت من العلم وما بلغت من الحكمة يا ابنتي، ولكنني أجد الآن حزناً لاذعاً يؤذني شيخوختي المتهاكمة؛ لأن ما أوتيت من العلم وما بلغت من الحكمة لم يهيئ لك وسيلة تسعدين بها غيرك كما هيأ لك هذه الوسائل التي تُرضي بها هواك، وتحقيقين بها مآربك، وتظهرين بها على عدوك، وقد يكون كلامي هذا

ثقيلاً عليك يا ابنتي؛ فإني جربت الملك من قبلك، وعرفت أن الحق لا يبلغ من المارة في نفس أحد ما يبلغه في نفوس الملوك، وعرفت أن النص لا يثقل على أحد كما يثقل عليهم، فلكل امرئ من نفسه ما تعود، كما سيقول شاعر من الناس فيما يقبل من الزمان، ونحن قد تعودنا أن تستقيم لنا الأمور، وأن تجري لنا على ما نريد لا على ما يريد غيرنا، ونحن قد ألقنا أن نأمر ولا نأتمر، وأن ننهى ولا ننتهي، وأن نطاع ولا نطيع؛ فأصبح الشذوذ لنا طبيعة، والجموح لنا فطرة، والاستبداد بالحياة والأحياء لنا قانوناً، فإذا تحدث إلينا متحدث بالحق، أو دعاانا داع إلى العدل، أو رغبنا مرغباً في أن ننصف من أنفسنا كما ننتصف لها، ضقنا بذلك أشد الضيق، وكرهناه أعظم الكره، ونگلنا بمن يدعونا إليه أو يرغبنا فيه تنكلاً، ولو أن وزيرنا قال لك بعض ما قلته الآن لأرسلته إلى الموت، أو لألقنته في غيابات السجن؛ وهو من أجل ذلك لم يقل لك شيئاً، ولكنه قادر في نفسه كل ما قلت لك.

فكري يا ابنتي في رعيتك وارفقني بها، بل فكري في رعایا عشاقك وارفقني بهم؛ فإن نعيم ساعة أو نعيم عام أو نعيم الدهر كله – إن ظفرت به – لا يعدل نفساً من هذه النفوس الكثيرة التي ستزهق ولا قطرة من هذه الدماء الغزيرة التي سترق، أتسمعين لي يا ابنتي أم أنت ذاهلة عن مشغولة بتدبیر أمرك هذا الذي تقدمين عليه!

قالت فاتنة وقد غشي وجهها شيء من كآبة لم يلبث أن جلت ابتسامة حلوة: «لقد استمعت لك يا أبتي فأحسنت الاستماع، وما ينبغي أن أذهل عما تقول أو ما تعمل، ومنك تعلمت أدب الحديث وأدب الاستماع وآداب الملك كلها، وما قلت لي يا أبتي إلا الحق وما دعوتنني إلا إلى الرشد، ولكن أمن الحق أن أكره على ما لا أريد؟! إن هؤلاء الذين يخطبوني إليك يعلمون حق العلم أني لا أحب منهم أحداً، ولا أبغض منهم أحداً، ولن أتروج منهم أحداً، فإن نصبوا لي الحرب ليكرهوني على ما لا أحب ويحملوني على ما لا أرضى، فلقيت كيدهم بكيد مثله، ودفعتهم عن نفسي بما تعودنا أن ندفع به عن أنفسنا، أكون ظالمة آثمة؟ فالتمس لي إذا يا أبتي فرجاً من هذا الحرج، ومخرجاً من هذا المأزق، وهل يقصر إثم الحرب على هذه الحرب التي نحن نقدمون عليها؟! ومتى رأيت الملوك يقدمون على حرب لا تدفعهم إليها شهواتهم الجامحة وعواطفهم الجائرة؟! ومتى رأيت الشعوب تُجبَّ هذه الأهوال وتُعصِّم من الحرب لغير مصالحها المؤكدة ومنافعها المحققة؟! إن أثرة الملوك والساسة والزعماء، هي التي تثير الحرب دائماً، وهي التي ترهق الشعوب دائماً، وأكاد أعتقد أن الشعوب إنما خلقت ليرهقها الملوك والزعماء بالحرب والسلم جميعاً، فليست

الشعوب أعظم حظاً من السعادة أثناء السلم منها أثناء الحرب. إننا ندفعها إلى الموت حين نحارب، وندفعها إلى البؤس والشقاء حين نسالم، فهي ضحية لنا على كل حال». قال الملك: «فقد كنت أرجو أن يهيء لك علمك وحكمك ابتكار لون من ألوان الحياة لا تشقي فيه الشعوب بسعادة الملوك والزعماء، ولكنني أراك تسيرين في الطريق التي سار فيها الملوك من قبلك، وقد كنت أنتظرك غير هذا؛ ولكن الظنون تكذب والأمال تخيب». قالت فاتنة: «صدقت يا أبا! إن الظنون تكذب وإن الآمال تخيب، وما أكثر ما كذبت ظنوني وخابت آمالي! وإنك لترى وجهي مشرقاً وتغري باسمًا وعيدي تقipان بهجة وبشرًا، ولو اطلعت على ضميري وقرأت دخيلة نفسي لرأيت حزناً أبي حزن، وشقاء، وشعورواً هو أقرب إلى اليأس والقنوط منه إلى أي شيء آخر، وإنني لأحدثك بهذا كله كارهة، وما كنت أريد أن أظهرك منه على شيء؛ فأنا شديدة الحرث على ألا ترى مني ولا ترى عندي إلا ما تحب، ولكنك قد بادريتني بما تجد محسناً بذلك إلى، فلا بد من أن أباديك بما أجد مسيئة بذلك إليك، وليس هذه أول مرة آذيت فيها نفسك الكريمة، وشققت فيها عليك بما يعتادني من همٌ ثقيل. إنك يا أبا مستثئس مني لأنني أسلك الطريق التي سلكها الملوك والأمراء من قبل، فأحيا لنفسي لا لغيري، ولا أرفق بهذه الرعية التي لم يرافق بها أحد قط، وهذا نفسه هو مصدر شقائي ويأسني، فأنبئني يا أبا! ما بال هذه الرعية لا ترافق بنفسها ولا تعنى بأمرها ولا تفك في مصالحها، وإنما ندعوها فتجبيب، ونأمرها فتطيع، ونوجهها إلى حيث تشاء فتتجه إلى حيث نشاء، لا يخطر لها أن تأتي إذا بلغها الدعاء، ولا أن تعصي إذا صدر إليها الأمر، ولا أن تمنع إذا وُجِّهت إلى حيث لا تحب؟! أفنكون أرفق بها من نفسها، وأحرض على مصالحها وكرامتها مما تحرض هي على مصالحها وكرامتها؟!

ومع ذلك فأين يكون الفرق بينها وبيننا؟! أليس الرجال منها والنساء والشباب منها والشيوخ، يشعرون كما نشعر، ويحسون كما نحس، ويجدون اللذة والألم كما نجد نحن اللذة والألم، ويحبون الخير ويكرهون الشر، كما نحب الخير ونكره الشر؟! فما طاعتها لنا في غير رؤية ولا تفكير، بل في غير فهم لما تؤمر به وتقدير لما تدعى إليه؟! أترى أنا خلقنا من عنصر غير عنصرها، أو أنها خلقت من نار غير التي خلقت منها؟!

لقد كنت أفهم أن نتسلط على الناس، فلا يستطيعون لنا مقاومة ولا يحاولون علينا امتناناً؛ فنحن من نار وهم من طين، فأماماً أن نتسلط على الجن الذين خلقوا من عنصرنا فلا نجد منهم إلا الإذعان والاستسلام، كما يتسلط ملوك الناس على الناس فلا يجدون منهم

إلا الإذعان والاستسلام، فهذا هو الذي يحير عقلي ويُدخلني على أن أسلك الطريق التي سلكها الملوك من قبلي». قال الملك: «فإن قلبك في حاجة إلى الرحمة يا ابنتي، وعقلك في حاجة إلى أن يكون أقوم تقديرًا للأمور؛ لقد نشأت على السلطان وتعودت حقوقه وواجباته. هيئت لذلك منذ درجت، وهيئ له من قبلك آباءك وأمهاتك، ونشأت الرعية على عكس ما نشأت أنت عليه، وعوّدت غير ما عوّدت، وهيئت لغير ما هيئت له منذ الزمان القديم الذي لا نعرف له أولاً، وكان هذا التفريق بين السيد والمسود خطأً، أفينبغى أن يستمر الخطأ؟! أليس من الممكن وقد ارتفعت عقولنا ونفذت أبصارنا إلى كثير من حقائق الأشياء، وعلمنا أن هذه الفروق بيننا وبين الرعية مصطنعة لم تأت من الطبيعة، وإنما جاءت من الحضارة. أليس من الممكن أن نصلح أغلالنا ونقوم بواجبنا؟ بل أليس من الممكن أن نصلح أغلال الطبيعة إن كانت هذه الفروق قد جاءت من الطبيعة؟! بل! هذا ممكناً، هذا واجب يا ابنتي، ولكن لا بد للنهوض بهذا الواجب من أن ننشر قلوبنا الرحمة والإحسان، ومن أن نؤمن بأن حياة الملوك ليست حقوقاً كلها، ولكنها واجبات أيضاً، وربما كان نصيب الواجب فيها أعظم من نصيب الحق. ما الذي يمنعنا أن ننشر الرعية بنفسها وبنصرها بحقها كما بصرناها بواجبها، ونهيئها لا أقول ل تستأثر من دوننا بالأمر، ولكن ل تشاركنا في الأمر وتعيننا على احتمال أعبائه الثقال؟!»

قالت فاتنة: «ومن أجل ذلك أنشأ المدارس يا أبت وأذاعت العلم وقد كان سراً مكتوماً، ومن أجل ذلك رفعت إليك بعض النابحين من الدهماء، فكلفتهم ما كلفتهم من أعمال الدولة، وقد كانت أعمال الدولة مقصورة على أفراد أسرتنا، ومن أجل ذلك عرضت نفسك لسخط الأمراء وكيد الشيوخ من رؤساء العشائر، وقد وصلت إلى كثير مما كنت تريده، فلولا هذه السيرة التي سرتها في الرعية لما ثار الاعتراف في نفوس الوزراء ورجال الحاشية حين أمرتهم أمري فأذعنوا له كارهين. هم الآن يضمرون الاعتراف وقد كانوا لا يشعرون به من قبل. أفهموا هو الذي أردت إليه؟»

قال الملك: «هو هذا يا ابنتي..»

قالت فاتنة، وقد وثبتت إلى أبيها فضmetه في رشاقة قبلته في عنف: «وهو ما أريد إليه أيضاً. ولتطب نفسك ولتقر عينك، فلن يصيّب الرعية من هذه الحرب التي أثيرها سوء».

قال الملك وهو يتضاحك: «ماذا تقولين يا ابنتي؟! حرب لا يصيّب الرعية منها سوء؟!

أحرب هي أم لعب؟!» قالت: «بل هي الحرب كل الحرب». قال: «أوضحني يا ابنتي عما

تريدين؛ فإني لا أفهم عنك شيئاً». قالت: «ذلك سري الذي ستفهمه حين أزيل عنه الستار». وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وهم شهريار حين انقطع حديث النائمة أن يفكر فيما سمع، ولكن النوم لم يمهله كما كان يمهله من قبل، وإنما سعى إليه حيثاً، وسمع الملك صوت طائفه ذاك يقول: «كلا، لا تفكير الآن ولا يقظة. لقد أودعتك شهرزاد إلى النوم! ورديك النوم إليها حيناً، فستعود إلى النوم حتى تستردك منه شهرزاد كما تقدم إليك وعدها أمس.»

وأكبر الظن أن شهريار لم يسمع هذه الكلمات الأخيرة، وإنما أغرق في نوم هادئ لا تروعه الأحلام ولا يقطعه الأرق، ويفتح عينيه بعد وقت طويل أو قصير، فيرى الغرفة وقد أذن لضوء الشمس المشرقة أن يغمرها، فظهرت جميلة رائعة متألقة، ورأى شهرزاد قائمة من سريره غير بعيد وهي تمد إليه بصرها حلواً مداعباً كأنها تدعوه إلى أن يستيقظ، وهي مع ذلك صامتة لا تقول شيئاً، ولكن وجهها يزдан بابتسامة حلوة تتبع الأمل وتدعوه إلى النشاط، فلما رأها الملك ابتسם لها، وهو أن يسألها كيف قضت الليل، ولكنها ابدرته بالسؤال فقالت: «كيف يجد مولاي نفسه؟» قال: «على خير ما أحب أن تكون ما دمت أنعم بقربك وأسعد منك بهذه النظارات الحلوة وبهذه النغمات الساحرة». قالت: «لقد استيقظ مولاي غَلَّاً، وأحسب أنه قد قضى ليلة هادئة». قال: «كل الهدوء». قالت: «ولكنني أسأل مولاي، أيجد نفسه من القوة والنشاط والصحة خيراً مما كان أمس؟» فتردد الملك قبل أن يجيب، ولكنها لم تُخَلِّ بينه وبين الجواب، وإنما قالت: «سأجib عنك يا مولاي، وسأغفilk من هذه الحيرة، وسأريحك من كذب لا تحبه ومن صدق لا تجد الشجاعة عليه. فأنت بخير ما في ذلك شك، وأنت اليوم خير منك أمس ما في ذلك شك أيضاً، ولكنك تخشى إن أنبأتك أن أخلي بينك وبين العمل وتكليف الملك، وإن أنبأتك بغير ذلك ل تستبني هذه الراحة التي أخلدت إليها أن تقول غير الحق، وأنت لا تريدين أن تكذب لأنك لا تحب الكذب أو لأنك تشفق ألا أؤمن لك. أليس هذا كله حَقاً يا مولاي؟!»

قال وهو يضحك، وقد أخذ يستوي جالساً في سريره: «هو كل الحق يا أحب الناس إلى». «

قالت في صوت العاتبة، وقد مالت إليه تقبله وتلطفه: «إنك لأشبئ شيء بالطفل الذي يداور أمك أو معلمك الحازم. لا يأس عليك، فلن يُخَلِّ بينك وبين العمل، ولن تحرم جوار شهرزاد. أليس هذا كل ما تريدين؟» ثم جلست إلى جانبه، وأدارت ذراعها حول عنقه، وأخذت تنظر إليه نظرات ملحة كادت ترده من الذهول إلى مثل ما كان فيه من أمسه.

لولا أنها نهضت ثم أنهضته وانصرفت به إلى حيث يستنشقان هواء الصباح مشرفين على جنة القصر من بعض الأطفاف.

وقد أنفق الملك يوماً من أسعد أيامه، لم يعرف فيه أبداً ولا حزناً، ولم يحس فيه حسرة على ما مضى ولا استطلاعاً لما هو مقبل، وإنما كان يعيش للساعات التي كان فيها مستمتعاً بهذه اللذات الهدائة المختلفة التي كانت تقدمها إليه شهرزاد في غير تكلف وفي غير جهد ظاهر، فأما وجه النهار فقد أنفقاه متزوضين في حدائق القصر، يقفان حيناً ويسيعيان حيناً آخر، ويجلسان حين يحتاجان إلى الجلوس أو حين يعجبهما هذا الموضع أو ذاك من الحديقة، فيحبان أن يطيلا البقاء فيه. أحاديثهما أثناء هذه الرياضة هادئة كفسيهما لا حوار فيها ولا جدال ولا تعمق فيها الشيء، وإنما هي أحاديث تجري على رسلاها كما كانت حياتهما تجري على رسلاها، وكما كان التسليم من حولهما يجري على رسلاه رخاء، وكما كانت الغصون تضطرب على رسلاها في الهواء، وكما كانت الطير تتغنى على رسلاها كذلك، وكما كانت الأزهار تتنفس على رسلاها عما تنشر في الجو من عبير.

وكان شهريار قد انغمس في هذه الحياة الحلوة الهدائة، ف nisi نفسي نفسه ونبي ملكه ونبي خواطره التي كانت تعتاده أثناء النهار وخواطره التي كانت تلم به أثناء الليل، بل نسي شهرزاد نفسها، ولم يقدر أنها كانت معه تسليه وتلهيه وتأسو جراح نفسه، وأن هذا النعيم الذي كان يستمتع به إنما هو من صنعها ليس غير، ولكن شهرزاد كانت بارعة في العناية به والتاطف له، حتى أنسنته أنه موضوع العناية والرعاية. سحرته عن نفسه وعما حوله بسيرتها، كما كانت تسحره عن نفسه وعما حوله بقصصها، ويهظر أنه تنبه لذلك فجأة فقطع ما كان يمضي فيه من حديث عادي، ورفع رأسه كالواجم ونظر إليها محدقاً فيها، ثم قال لها بصوته الهدائى الذي كانه يأتي من بعيد: «ألا تتبئنني آخر الأمر من أنت وماذا تريدين؟!»

قالت وهي تص户口 ضحكاً ينم عن بعض القلق: «أيكون الملك قد عاد إلى طوره الأول من الاضطراب والذهول؟ أو يعود إلى هذا السؤال الذي لا يعني شيئاً ولا يدل على شيء؟! أنا من ترى ومن تسمع، ومن تحس قربها منك، وحبها لك، وفناءها فيك، وحرصها على أن تملأ نفسك غبطة، وضميرك بهجة، وقلبك أمّا وسروراً. إنك لا تسأل هذه الشجرة ولا هذه الزهرة ما هي ولا مازا تري، وإنما تنظر إليها وترضى عنها وتعجب بها، وتحمد الله على ما أنعم عليك من الاستمتاع بها. فانتظر إلى كما تنتظر إلى هذه الشجرة أو إلى هذه الزهرة، وخذ مني ما أعطيك وأعطيك ما أسألك إن استطعت، ولا تكلف نفسك أكثر

من هذا. عش بحسك وقلبك وضميرك، وتحتفف من عقلك بين حين وحين. عش عيشة الإنسان الحي لا عيشة العالم الباحث؛ فإن للعلم والبحث وقتاً مقصوماً من حياة الناس، وما ينبغي أن تكون حياتهم كلها علمًا وبحثًا وتعليلًا وتحليلًا».

قال وقد أدار ذراعه حول خصرها اللطيف الرَّخْصِنْ: «فإنني لا أسألك الآن سؤال الباحث المستقسي، وإنما أسألك سؤال المحب المدنس، فقد عرفتك».

قالت: «قد عرفتني! واحربوا! ستزهد فيَ إِذَا قبل أن يتقدم النهار»، ثم أغرتت في ضحك غامض طويل.

قال: «قد عرفتكم ولن أزهد فيك! لأن معرفتي إياك تدفعني على الاستزادة منك؛ فأنت قصص دائم لأنك سحر دائم، أخص ما تمتازين به أنك تشغليتنى عن نفسي وعن مليكي وعما حولي وعمن حولي، بل تشغليتنى عنك أيضاً».

قالت وقد أغرتت في الضحك: «إن كنت أشغلك حتى عن نفسي، فما أدرى كيف تفكـر في أو تـسأـل عـنـيـ؟ أـلاـ يـمـكـنـ أـلـاـ أـكـونـ شـيـئـاـ ماـ دـمـتـ أـشـغـلـكـ عـنـ كـلـ شـيـءـ؟ أـلاـ يـمـكـنـ أـنـ أـكـونـ شـيـئـاـ غـيرـكـ، فـأـنـتـ تـشـغـلـ بـنـفـسـكـ عـنـ كـلـ شـيـءـ وـعـنـ كـلـ إـنـسـانـ؟ وـلـكـنـ أـبـأـتـنـيـ بـأـنـيـ أـشـغـلـكـ عـنـ نـفـسـكـ. صـدـقـنـيـ إـنـيـ لـأـفـهـمـ عـنـكـ، وـمـاـ أـرـىـ إـلـاـ أـنـكـ تـمـعـنـ فـيـ فـلـسـفـةـ أـشـدـ مـنـيـ عـمـوـضاـ وـأـعـظـمـ مـنـيـ اـسـتـعـصـاءـ عـلـىـ الـفـهـمـ. دـعـ الـفـلـسـفـةـ وـدـعـ الـتـفـكـيرـ، وـتـعـالـ نـنـعـمـ بـهـذـهـ السـاعـاتـ الـحـلـوـةـ الـتـيـ تـتـاحـ لـنـاـ وـالـتـيـ نـخـتـلـسـهـاـ أـوـ أـخـتـلـسـهـاـ أـنـاـ لـكـ وـلـيـ مـنـ تـكـالـيـفـ الـحـيـاـةـ. إـنـيـ أـشـغـلـكـ عـنـ نـفـسـكـ وـأـشـغـلـكـ عـنـ نـفـسـيـ وـأـشـغـلـكـ عـنـ كـلـ شـيـءـ. وـلـكـنـ مـاـ رـأـيـكـ فـيـ أـنـ شـيـئـاـ لـمـ يـشـغـلـنـيـ عـنـ أـنـ النـهـارـ يـتـقـدـمـ، وـعـنـ أـنـنـاـ نـوـشـكـ أـنـ نـجـدـ لـدـعـ الـجـوـعـ، وـعـنـ أـنـ مـنـ الـحـقـ عـلـيـنـاـ أـنـ نـتـهـيـأـ لـلـغـدـاءـ؛ ذـلـكـ أـحـرـىـ أـنـ يـتـيـحـ لـنـاـ إـلـغـرـاقـ فـيـ الـفـلـسـفـةـ وـإـلـمـاعـنـ فـيـ الـبـحـثـ عـمـاـ وـرـاءـ الـطـبـيـعـةـ. هـلـمـ يـاـ مـوـلـايـ، فـسـتـرـىـ أـنـ هـذـاـ النـعـيمـ الـحـلـوـ الـذـيـ اـسـتـمـعـنـاـ بـهـ الآـنـ لـيـسـ شـيـئـاـ بـالـقـيـاسـ إـلـىـ مـاـ هـيـأـتـ لـكـ شـهـرـزـادـ هـذـهـ الـتـيـ لـاـ تـعـرـفـ مـنـ هـيـ وـلـاـ تـدـرـيـ مـاـذـاـ تـرـيدـ». وـكـانـتـ شـهـرـزـادـ قـدـ هـيـأـتـ لـلـمـلـكـ نـعـيـمـاـ لـمـ يـكـنـ يـقـدـرـ أـنـهـ سـيـتـاحـ لـهـ فـيـ يـوـمـ مـنـ الـأـيـامـ، مـنـ حـمـرـةـ الدـمـاءـ تـلـكـ الـتـيـ كـانـتـ تـصـبـغـ فـيـ نـفـسـهـ أـعـقـابـ الـلـلـيـلـ وـوـجـهـ النـهـارـ مـنـ كـلـ يـوـمـ، فـقـدـ كـانـ مـنـذـ تـلـكـ الـأـيـامـ السـوـدـ وـالـلـيـاليـ الـبـيـضـ قـدـ أـلـفـ الـحـزـنـ حـتـىـ لـاـ يـفـلـتـ مـنـهـ إـلـاـ الـحـينـ بـعـدـ الـحـينـ، حـينـ كـانـتـ شـهـرـزـادـ تـقـصـ عـلـيـهـ بـعـضـ أـحـادـيـثـهـاـ أـوـ تـمـتـعـ بـبـعـضـ مـاـ كـانـتـ تـهـدـيـ إـلـيـهـ مـنـ سـعـادـةـ حـيـنـاـ بـعـدـ حـيـنـ. فـأـمـاـ نـعـمـةـ الـبـالـ وـرـخـاءـ الـعـيـشـ وـرـاحـةـ الـضـمـيرـ وـهـدـوـءـ الـنـفـسـ الـمـتـصـلـ، فـقـدـ كـانـتـ أـشـيـاءـ حـرـمـتـ عـلـىـ شـهـرـيـارـ وـقـطـعـتـ بـيـنـهـ وـبـيـنـهـ الـأـسـبـابـ، فـلـمـ تـقـدـمـ النـهـارـ وـكـادـ أـنـ يـنـتـهـيـ أـقـبـلـتـ شـهـرـزـادـ بـالـمـلـكـ عـلـىـ غـرـفـةـ مـنـ غـرـفـاتـهـ فـيـ الـقـصـرـ وـهـيـ

تقول له عابثة به: «ستعلم يا مولاي أنك لا تعرف من قصرك هذا إلا أقل ما فيه، وإنني لأرجو أن يدعوك ذلك إلى التفكير فيما تعرف من أمور الملك والرعاية؛ فإنك إن جهلت أمر قصرك وحاشيتهاك أيسره كنت خليقاً أن تجهل من أمر ملك ورعايته أكثر مما تعلم، وكان الحكماء يقولون في قديم الزمان وسالف العصر والأوان: إن من أراد أن ينهض بالواجب في أي أمر من الأمور، خلائق به أن يعرف ما هو مقدم عليه ويتبين دقائق ما هو ناهض به وحقائق ما هو مدبر له، وألا يقدم إلا عن بصيرة، ولا يعمل إلا عن علم، وما أعرف يا مولاي غروراً كغرور الذين ينهضون بتدبیر أمور الناس وهم لا يعرفون من دخائل هؤلاء الناس شيئاً، أو هم لا يعرفون منها إلا أقلها وأيسراها. إنهم يأمرون دون أن يقدروا مقدار احتمال الرعاية لما يصدرون إليها من أمر، وإنهم ينهون دون أن يعرفوا إلى أي حد تطبيق الرعاية أو لا تطبيق أن تتأي عمما تنهى عنه؛ لأنهم لا يعرفون نفوس الرعاية ولا يبلون طاقتها ولا يقدرون حاجتها، ولكنني كنت أنهاك صباح اليوم عن الفلسفة فيما بعد الطبيعة، وهذا ذي أخوض بك مساء اليوم في فلسفة الحكم وتدبیر أمور الرعاية كأنني حديثة عهد بقراءة أفلاطون وأرسطاطليس، فلنعد إلى ما كان فيه يا مولاي، فإني أريد أن أظهرك من قصرك على أشياء لم تكن تعرفها ولم تكن تقدر أنك ستعرفها.»

قال الملك وقد اشتدت حاجته إلى الاستطلاع: «فأظهرييني إذاً على ما تريدين أن تُظهرييني عليه.»

فقالت: «على رسلك يا مولاي، فما ينبغي أن تجري الأمور على ما تحب دائماً، والعلم لا يُبلغ إلا بعد الجهد في طلبه واحتمال العناء في تحصيله، وإنني مدخلتك في هذه الغرفة وطاركة لك البحث في أنحائها وأرجائها ما وجدت إلى البحث سبيلاً، فإذا أعياك البحث وأضناك الجهد فإني مشترطة عليك بعض الشروط لأريك ما لم تكن تتصور أنك ستراه.» ثم دفعت بباب الغرفة فاندفع، ونظر الملك فلم ينكر في الغرفة شيئاً ولم ير فيها شيئاً خليقاً بالالتفات، ولكنه مع ذلك جعل يجيل طرفه هنا وهناك، ويطيل النظر إلى بعض ما في الغرفة من أدلة وأثاث يريد أن يخبل إلى شهرزاد أنه يبحث ويستقصي ويجد في البحث والاستقصاء، ثم يعترف لها بعد ذلك بأنه لم يصل إلى شيء، وإنما كان في هذا كله مخادعاً يريد أن يتوجه العلم بما أعددت له شهرزاد من أسرارها المخبأة.

ولكن شهرزاد ضحكت للملك ضحكة فاترة لا تخلو من بعض الغيظ وقالت: «لست جاذداً يا مولاي، وإنك لتعرف أني لا أخدع ولا يُغدر بي، وإنك لتعرف أني لا أكره شيئاً كما أكره الكسل العقلي، وهذا الطور الذي يحصل عليه المترفون من أطوار الحياة حين

ينتظرون أن يقدم إليهم الهين واليسير مما يريدون، لا يتکلفون فيه جهداً ولا يحتملون فيه عناء، فقد أبأتك يا مولاي بأنني سأقوم منك الآن مقام الساحرة الماهرة التي ستُتَظَهِرُ على الأعاجيب؛ فلا تتعجل هذه الأعاجيب، ولكن خذها بحقها، وأبلغها من طريقها، واحتمل في سبيلها ما ينبغي أن تحمل من جهد، فإن لم تفعل خرجنا من هذه الغرفة كما دخلناها، وانصرفت بك إلى غير ذلك من فنون اللهو والمداعع، فما أكثر ما في القصر من فنون اللهو والمداعع!»

قالت ذلك ثم ضربت إحدى يديها بالأخرى فأقبلت الوصائف مسرعات يستيقن، كأن وجههن فلق الصبح، وكأنهن لخافتنهن ورشاقتهن لا يسعين على الأرض وإنما يسعين في الهواء، فلما رأهن الملك مقبلات شيء بهن وضاق بهن ذرعاً، وكاد بعض ذلك يظهر في وجهه لو لا فضل من حياء فرضه عليه أدب الملوك، فقد كان في جمالهن البارع وحسنهن الرائع منظر أنيق للعين وفتنة خلابة للنفس، ولكن محضرهن كان خليقاً أن يصرف الملك عن شهرزاد أو يصرف عن الملك شهرزاد، وكان أبغض شيء إلى الملك وأشّقه على نفسه أن ينصرف عن فتنته أو أن تنصرف عنه فتنته، فلما رأى الوصائف مقبلات لم يرتح لقدمهن، ولكنه أمسك نفسه على ما لا تحب وانتظر حائراً أو كالحائر.

على أن انتظاره لم يطّل؛ فقد أقبلت إليه رئيسة الوصائف، فحيت وقالت في صوت عذب: «أيَّاذن مولاي في أن يبدأ الحفل؟»

قال الملك دهشًا متمالكًا مع ذلك: «أي حفل يا ابنتي؟»

قالت الوصيفة: «كنت أظن أن مولاتنا قد آذنت الملك بما هيأت له.»

قالت شهرزاد في شيء من الغضب: «إيني لم أُذن الملك بشيء، فأمضين ما أمرتن

به..»

منذ هذه اللحظة نقل الملك من حياة إلى حياة، ومن عالم إلى عالم، لم يدر كيف كان ذلك، ولم يستطع فيما استقبل من أيامه أن يصور لنفسه أو لغيره كيف كان هذا الانتقال، وإنما ذكر إلى آخر أيامه أن صوت شهرزاد لم يكيد ينقطع بهذه الجملة المغببة حتى شاع في الغرفة جو غريب قوامه أنغام موسيقية عذبة نفاذة إلى أعماق الضمائر أخاذة بمجامع القلوب.

وقد حاول الملك أول الأمر أن يتعرف مصدر هذه الأنغام، فنظر إلى الوصائف فإذا هن قائمات في أماكنهن لا يأتين حركة ولا يحدثن حسماً، وليس في أيديهن أداة موسيقية أو ما يشبه الأداة الموسيقية من قريب أو بعيد، ونظر إلى شهرزاد فإذا هي قائمة في مكانها

وعلى وجهها ابتسامتها الغامضة التي لا تقول شيئاً، والتي تقول كل شيء، والتي لا تخلو مع ذلك من سخرية تحفظ وتهيج، وأدار الملك بصره في الغرفة ينظر في كل مكان يريد أن يتبعن لهذه الأنغام الساحرة مصدرًا فلا يرى شيئاً، وإنما يخيل إليه أن هذا الجو الموسيقي الذي أحاط به وأحاط بمن حوله أشبه شيء بالجو الذي يعيش فيه أثناء أوقاته العادمة، لا يعرف أين يبتديء ولا أين ينتهي.

وكان أغرب ما في هذا الجو الموسيقي الرائع اختلاف أنغامه وائللافها في وقت واحد، بل اختلاف الأصوات التي كانت تحمل هذه الأنغام وائللافها، فكان هذا كله يلقي في روح الملك أن هناك أدوات موسيقية مختلفة لا تحصل على تصدر عنها أصوات وأنغام متباعدة، ولكن قوة بارعة ساحرة قد أشرفت عليها ودبرت ما بينها من اختلاف حتى أحالته إلى ائتلاف.

ولم يمض على إحساس الملك هذا الجو من حوله وقت طويل حتى أحس الملك أنه يغرق في هذا الجو وينسى نفسه قليلاً قليلاً، لأنما كانت الحياة الشاعرة تناسب من نفسه ومن جسمه شيئاً فشيئاً، وإذا هو يفنى في هذا الجو المحيط به فيصبح صوتاً من أصواته أو نغمة من أنغامه، أو يصبح جزءاً شائعاً في كل صوت من هذه الأصوات، وحظاً مفرقاً في كل نغمة من هذه الأنغام، وقد نسي كيف ابتدأ هذا الجو، ولم يسأل نفسه كيف ينتهي، وإنما استسلم لهذا البحر الموسيقي الذي غمره كما يستسلم الغريق بعد أن يبذل آخر جهده في المقاومة، وبقي له مع ذلك شعور واحد، وهو أنه في حضرة شهرزاد، وأنها تتنظر إليه ساخرة منه راثية له، وتbum له ابتسامتها الغامضة كأنها تقول له: «ألم أتبئك أني سأظهرك من الأمر على ما لم تكن تقدر أنك ستظهر عليه، وأني سأطلعك في قصرك على ما لم تكن تظن أن قصرك يحتويه، وأني سأسحرك وأبهرك وأضطررك إلى هذا الاستسلام الذي انتهيت إليه، ومع ذلك فقد كنت تخيل إلى نفسك أنك بدأت تعرفني! فذق الآن هذه المعرفة، وتبين أنك لم تجهلني قط كما تجهلني الآن».

وينظر الملك إلى شهرزاد واجماً مبهوتاً، ويريد أن يتكلم فلا يطاووه لسانه، ويريد أن يتقدم فلا تطاووه قدماه؛ ولكن شهرزاد تسعى إليه هادئة كأنها الحياة تسعى إلى الجسم الهاجم، أو كأنها اليقظة تسعى إلى النائم المغرق في النوم، حتى إذا بلغته وضعفت يدها على كتفه وقالت له في صوت لم يستطع أن يفرق بينه وبين هذا الجو الموسيقي المحيط به، وإنما خيل إليه أن الغرفة كلها تكلمه بهذا الصوت، قالت له: «لا ترْغِ يا مولاي، فليس عليك من بأس»، ثم أخذت ذراعه ومضت به إلى مجلس من مجالس الغرفة فأجلسته

رفيقة به وجلست إلى جانبه عطوفاً عليه، وقالت له في صوتها هذا الجديد الغريب: «ألم أنبئ مولاي بأنني ساذيقه من نعيم الحياة ألواناً لم يذقها قط، بل لم يذقها إنسان قبله قط! أفيرى مولاي أني قد وفيت بالوعد أو بدأت بالوفاء!» قال الملك في صوته الخافت الذي كان كأنما يأتي من بعيد: «ألا تنبئيني آخر الأمر من أنت وماذا تريدين؟!»

قالت متهالكة: «ألا يشغلك ما تسمع عن هذه الفكرة الملحة عليك المضنية لك؟! أليس خيراً من ذلك أن تسأل عن هذه الموسيقى من أين تأتي وإلى أين تمضي؟!» قال: «فإنها تأتي منك وإليك تعود..»

قالت: «فإذا لم يستطع سمعك أن يشغلك عنِّي وعما أريد، فستشغلك عيناك يا مولاي. انظر!»



ونظر الملك من وله فرأى عجباً، لقد كان يعلم أن شهرزاد قد أقبلت به منذ حين على غرفة من غرفات القصر لها جدران تحدها وباب يغلق من دونها، ومن هذا الباب قد دخلت الوصائف آنفًا، ومن هذه الجدران قد نبعث أنغام الموسيقى كما ينساب الماء من العيون الجارية، لكنه الآن ينظر فلا يرى جدران الغرفة، وينظر فلا يرى للغرفة سقفاً ولا باباً، وإنما يرى نفسه في مكان متبعاد الأرجاء متراخي الأطراف، قد زين أحسن زينة وأروعها وأعظمها تأنقاً ورشاقة، وقد تقدم هذا المكان في بحيرة تحيط به من جهاته الثلاث، واتصل بالقصر من جهة الرابعة، فكأنه يد قد مدتها القصر في هذه البحيرة لتأخذ منها شيئاً، وهذا المكان الواسع الرائع يغمره الجو الموسيقي ذاك كما كان يغمر تلك الغرفة الضيقة الساذجة، ولكن شيئاً آخر قد ظهر في هذا المكان، فهؤلاء أزواج من الفتيات والفتيا قد حسنت وجوههم واعتدلت قدوتهم وغمّرهم بشر عجيب وهم فرحون مرحون، يعبثون هنا ويجدون ويتراقصون في هذه الناحية ويسموون في تلك الناحية، والملك مسحور مبهور يرى كل شيء ولا يتحقق في نفسه مما يرى شيئاً، وشهرزاد تقول له في صوتها الهادئ الذي يقع في نفسه كأنه قطعة من هذا الجو الفرح المرح: «لا بأي عليك يا مولاي! فإنك ترى هؤلاء الأزواج من الفتيان والفتيات، وتسمع لأصواتهم الجادة والعابثة، ولكنهم لا يرونك ولا يسمعون لنا حين نتحدث؛ لأنهم لم يخلقوا بعد، ولكنهم سيخلقون في يوم من الأيام. ألم أحدثك بأنني ساحرة؟! فقد قصصت عليك العجب من أبناء الماضي، فأنا أقصص عليك العجب من أبناء المستقبل، ولكنك يا مولاي لا تؤمن بالقصص، وإنما تتلهمي به كما يتلهمي به عامة الناس، ولو قد أمنت بالقصص كما تؤمن به شهرزاد، لما رأيت فيما تشهد الآن سحراً ولا فتنة، ولرأيت في هذا العالم الذي يبتدعه القصص ملجاً تأوي إليه ووزراً تعتصم به إذا ضاقت نفسك بهذه الحياة الراكدة التي يحياها الناس حين ينامون وحين يستيقظون وحين يضطربون في أمورهم اليومية. هلم يا مولاي، فقد بدأنا رحلة لم نتقدم فيها إلا قليلاً».

ثم تنھض متناقلة، وتُنهض الملك متلطفة، وتمضي به أمامها وقتاً لا يدري الملك أطال أم قصر. ولكنها قد انتهت به إلى حافة البحيرة، فوقفت وأشارت بيدها في الفضاء أمامها، وقالت للملك: «انظر يا مولاي! ألا يشوقك أن تستمتع بما يستمتع به هؤلاء من النعيم!» وينظر الملك فيرى أسراباً لا تحصى من الزوارق قد ملأت البحيرة مختلفة ألوانها مزدانة أجمل زينة وأروعها، يغمرها الضوء فكأنها تسبح فيه كما تسبح في الماء، تصدر عن بعضها الموسيقى، ويصدر عن بعضها الغناء، وكلها يصور الفتنة والسحر والجمال.

وبيهم الملك أن يقول شيئاً، ولكن شهرزاد تضمه إليها رفيقة به وتقول له في صوت فاتر ساحر: «لا تقل شيئاً يا مولاي! فقد خلصت نفسك لي كما خلصت نفسي لك منذ الليلة. انظر إلى هذا الزورق يا مولاي! إنه يدعونا فلنجب دعوته. إنك لن تستجيب له حتى تنحسر عنك أيامك المثلثة بالهموم والأحزان والتجارب، وإنني لن أستجيب له حتى أعود كما كنت قبل أن أتحداك وأتحدى عندك الملك والموت والحب جميعاً. هلم يا مولاي لنعد إلى شبابنا القديم النقي الذي لا يدنسه إثم ولا تشوبه فتنة ولا تتشله تجربة، وإنما هو ناصع كضوء الشمس، رقيق كضوء القمر، حلو كابتسمة العذراء.»

ويرى الملك نفسه مع شهرزاد في زورق من هذه الزوارق الرائعة التي تسبح في الماء والضوء والموسيقى والغناء جميعاً، ولكن ماذا؟ هذه يد تمس كتف الملك، وهذا الملك يتذوق إلى نفسه فجأة، وإنها هو نائم في مكانه من زورقه ذاك قد غلبه النوم على شعوره المستمتع بما كان يجد من لذة ونعيم، ثم ردته اليقظة لا إلى شعوره ذاك، ولكن إلى صوت يعرفه لأنّه سمعه قبل ذلك، وإذا هذا الصوت يقول: «فلما كانت الليلة الثانية عشرة بعد الألف قالت شهرزاد.»

ثم ينقطع الصوت، ويهد الملك عينه ويمد سمعه، فيرى شهرزاد مغرقة في نوم هادئ، ويسمعها تقول في صوتها الرائع الحلو: «بلغني أيها الملك السعيد أن فاتنة قالت لأبيها: ذلك سرّي الذي ستفهمه حين أزيل عنه الستار.»

٥

وملوك الجن يا مولاي لا يحتاجون إلى ما يحتاج إليه ملوك الناس حين يكتب بعضهم إلى بعض من قطع الآماد البعيدة في الأوقات الطويلة؛ ليظهر بعضهم على رسائل بعض، ولكن لهم فنوناً من الحيلة يقطعون بها أبعد الآماد في أقصر الأوقات، يكون أحدهم في أقصى الشرق فيبلغ ما يريد لصاحبها في أقصى الغرب قبل أن يرتد إليه طرفه، لا تعوقه مسافة، ولا تصدّه أمواج البحر ولا عقاب البر ولا عواصف الجو، لأن لهم أرواحاً تسعى بينهم بالرسائل؛ فكلهم بعيد من صاحبه إلى أقصى غایات البعد، وكلهم قريب من صاحبه إلى أدنى آماد القرب.

وما أكثر ما يأخذ الناس عن الجن! ولكن ذلك لا يتأتى لهم إلا بعد الجهد والمشقة، وحين يخطر لروح من أرواح الجن أن يتالف فرداً من أفراد الناس، ومن يدرى يا مولاي!

لعل الناس فيما يستقبل من الأيام أن يتعلموا من الجن وسائلهم هذه في استخدام الأرواح،
يتواصلون بها على بعد الشقة وتتأتي الآماد.

ومهما يكن من شيء يا مولاي، فقد أقبل وزير الملك طهمان بن زهمان قبل أن يفرغ
الملك من حديثه إلى ابنته، وجلًا يُخفي وجهه في كثير من الجهد، ومذعورًا يُسِرُّ ذعره في
كثير من العناء.

فلما مثل بين يدي الملك والأميرة قال في صوت متهدج مضطرب: «لقد أبلغت تحدي
مولاتنا إلى ملوك الجن جميعاً في البر والبحر والجو؛ فكلهم قبل التحدي، وكلهم أذننا
بحرب تبدأ الآن، ولكنها لن تنتهي فيما يقولون إلا حين تُستَأسَر مولاتنا للمنتصر». ثم
وقف واجحاً ذاهلاً لا يكاد يعقل شيئاً، بل لا يكاد يأتي حركة.
فنظرت إليه الأميرة باسمة ساخرة، وقالت في صوت المتضاحكة: «ثم ماذا أيها
الوزير؟»

قال مضطرباً متعلثماً: «ثم إنني أقبلت يا مولاتي أرفع الأمر إلى مولانا وإليك وألتقي
أمركما.»

قالت: «فأي أمر تريده أن تتلقى؟»
فوجم الوزير، ونظر أمامه والتفت عن يمين وشمال، كأنه يتلمس من يلهمه الرد
على الأميرة. فلما لم ير أحداً قال في صوته المتهدج: «فهل يأذن مولاتنا في أن نجمع مجلس
الحرب؟»

قال الملك: «هو ذاك..»

قالت الأميرة: «وما عسى أن يصنع مجلس الحرب؟»
قال الملك: «يصنع يا ابنتي ما تصنع مجالس الحرب في مثل الحال التي اضطررنا
إليها، فهناك أوامر يجب أن تصدر، وجند يجب أن تُعبأ، وأمور يجب أن تُهيأ.»
قالت فاتنة: «فأرجح نفسك يا أبنتي من مجلس الحرب، فلسنا في حاجة إليه. لن تصدر
الأوامر، ولن تُعبأ الجنود، ولن يُهيأ لهذه الحرب شيء. اذهب إليها الوزير فأذن في الجن
ألا يُرعاكم؛ فليس عليهم من بأس، وإن هذه الحرب التي بدأت منذ الآن ستنتهي دون أن
يصيبهم منها مكرر، بل أنا أرجو أن يصيّبهم منها خير كثير.»

هنا لك وثب الملك وقد ثاب إليه حزمه وعزمته وعاد إليه حده وجده، كأنما هب من
نوم عميق طويل فاستقبل يقطة حافلة بجلائل الأعمال وعظام الخطوب، فقال: «اعبثي
يا ابنتي ما شئت أن تعبثي، وجرّبي ما أحبت أن تجربّي، وتهيئي لهذه الحرب الغريبة

التي دفعتنا إليها كما تريدين؛ ولكن دعينا نُعذل للحرب عذتها ونستقبلاها كما تعودنا استقبالها؛ فإنْ تنجح وسائلك لم يكن في استعدادنا شر ولا في احتياطنا ضرر، وإن تخفق تجاربك لا تؤخذ الرعية والمملكة من تقصير الساسة وإهمال القادة». ثم التفت إلى وزيره قائلاً: «ادع لنا مجلس الحرب، وما أرى إلا أنك قد فعلت».

قال الوزير: «فإن قادة الجندي وسasse الملك بباب مولانا ينتظرون أن يؤذن لهم في الدخول..»

قال الملك: «فأدخلهم إذاً».

وأقبل القواد والحكام والمشيرون، فحيى كل منهم وأخذ مجده حيث ينبغي له أن يجلس، ثم أخذوا يتذمرون ويفكرون ويتشاورون، ولم تكن عنایتهم بحماية الأمن الخارجي أشد من عنایتهم بحماية الأمن الداخلي؛ فقد تسامع أفراد الرعية وجماعاتها بهذه الحرب في أقل من طرفة عين، فبعضهم أشفق منها فأخذ يحتاط للمستقبل، وبعضهم أدركه الذعر فأخرجه عن صوابه وتجاوز به القصد فيما ينبغي أن يعمل أو يقال، وبعضهم انتهز فرصة كان ينتظرها فإذا هو يكيد ويمكر ويتربيص الدوائر بالدولة القائمة أو بالحكومة العاملة لهذه الدولة، وبعضهم كان أقرب من هذا همة وأقصر نظراً وأشد إثارة لنفسه بالخير وأحرص على تحقيق منافعه العاجلة، فأأخذ يقامر ويغامر ويجمع المال ويكتنز الذهب والفضة ويدخر المؤن، غير حافل بما سيكون لذلك من أثر في حياة من حوله من الأفراد والجماعات، وإنما ركب شهوته واتبع هواه لم يفكر إلا في إرضاء مطامعه وتحقيق منافعه. ولم يكن بد من الاحتياط لهذا كله والضرب على أيدي هؤلاء جميغاً، ولم يكن بد من أن يأمن الخائف، ويطمئن المذعور، ويُحمي من لا حامي له إلا النظام والقانون، ولم يكن بد لتحقيق هذا كله من أن تصدر الأوامر وتتخذ الأהبة، ولكن ملوك الجن يا مولاي ليسوا كملوك الناس؛ لا يتعرضون للإهانة ولا يوصمون بالقصیر ولا ينتظرون أن تلّم بهم الكوارث وتفاجئهم الحوادث، ولكنهم يستعدون لكل حادثة، ويتأهبون لكل كارثة، ويسبقون الخطوب بالاستعداد لدرئها، تنفذ بصائرهم إلى ما وراء الحاضر كما تنفذ أبصارهم إلى ما وراء الجو الذي يعيشون فيه، وهم من أجل ذلك لا تدهمهم داهمة، ولا تلم بهم ملمة إلا استخرجوا قوانين قد هيئت، وأوامر قد أعدت، وكلفوا تنفيذ القوانين وإجراء الأوامر جماعات من أعوانهم قد أعدوا لهذا كله من قبل، ولم يعرف أحد أنهم أعدوا له أو كلفوا القيام عليه.



ومن يدري يا مولاي! لعل ملوك الناس يعرفون من هذا بعض ما يجهلون، ويتهيئون منه مثل ما يتهدى له ملوك الجن، فلا تؤخذ دولهم على غرة، ولا تفجئها الحوادث على غير تهيوٌ ولا استعداد.

ومن أجل هذا كله يا مولاي لم يحتاج طهمان بن زهمان وزراؤه وأعوانه إلى وقت طويل ليحزموا أمرهم ويفرغوا من تدبیر الأمن الداخلي؛ وإنما مرروا بذلك مرّاً سريعاً، واستقامت لهم أمورهم في ذلك على خير ما أحبو.

وكانت فاتنة تسمع وترى وتبتسم غير حافلة بما تسمع ولا آبهة لما ترى، ولكنها مع ذلك كانت تجد شيئاً من الرضا والغبطة؛ لأنها كانت ترى أباها حازماً عازماً يدبیر الأمر وينفذ القضاء كعهده حين كان قويّاً جلداً نفاذاً غير مت halk ولا مستيئس.

فلما فرغ القوم من تدبیر أمور الرعية، أخذوا يعرضون أمور الحرب ويتهيئون لاستقبال العدو المغير، ولم يكن الأمر هيناً ولا ميسوراً؛ فهم قد كانوا تعودوا أن يحاربوا

هذا الملك أو ذاك من ملوك الجن، ولم يكنوا ينتظرون أن يحاربوا ملوك الجن جميعاً، وهم كانوا قد ألغوا أن يستعدوا للشر يأتיהם من الجو أو يأتיהם من البر أو يخرج لهم من البحر أو ينجم لهم من الأرض، ولكنهم لم يألفوا أن يأتיהם الشر من هذه الوجوه كلها في وقت واحد؛ فلم يكن أمرهم سهلاً ولا تشاورهم ريفقاً.

وكانت فاتنة مع ذلك تنظر إليهم وتسمع منهم غير حافلة ولا مكترثة. على أن شيئاً من الرثاء بلغ نفسها القاسية آخر الأمر فقالت لأبيها: «ارفق بنفسك وببهؤلاء القيادة والساسة يا أبي، فلست في حاجة إلى كل هذه الخطط التي تدبرونها وتقدرونها وتديرون فيها الحوار. إن مملكتنا معرضة لشر لا قبل لها به، فإما أن تنجح خطتي التي رسمتها والتي لا تعلمون منها شيئاً، وإما أن نهلك جميعاً دون أن تبقى لنا باقية.»

قال الملك وعلى ثغره ابتسامة مرّة خير منها العبوس: «هو ذاك يا ابنتي؛ فإنك لا تنبئيني بشيء أجهله، ولكنني لا أحب أن أؤخذ على غرة أو أن أوتي من تقصير، فلأجاهد ما استطعت إلى الجهاد سبيلاً، ولأعذر ما وجدت إلى الإعذار طريقاً، وليجر القضاء بعد ذلك بما شاء!»

وما كاد الملك يفرغ من كلامه هذا حتى تغير من حوله كل شيء، فإذا الأرض تميد، وإذا الجو يكpher، وإذا ظلمة قائمة تزيد أن تأخذ المدينة من جميع أقطارها، وإذا سحب متراكمة متراكبة تظهر في السماء مرسلة في الجو بروقاً خاطفة ورعوداً قاصفة، وإذا الوزراء والساسة يذهلون عما حولهم، وإذا القيادة ينصرفون كلُّ إلى موضعه من قيادة الجيش، لعله يعمل عملاً أو يُبلي بلاء. والملك ثابت مكانه لا يريم، ناظر أماته لا يحول طرفه إلى يمين وشمال، وقد جمدت على ثغره ابتسامة كانت حائرة فاستقرت في مكانها، لأن نفس الملك لم تجد قوة ولا وقتاً للتفكير أو التقدير فضلاً عن الابتسام أو العبوس.

وفاتنة باسمة كان شيئاً لم يتغير من حولها، وكأن حدثاً لم يحدث، وإنما هي قائمة كعدها آنفاً حين كانت تنظر إلى مجلس الحرب في كثير من السخرية وفي كثير من الرثاء، وحين كانت تنظر إلى أبيها في كثير من الرحمة والحب وفي كثير من الإكبار والإجلال.

على أن صوتاً هائلاً يملأ ما بين الأرض والسماء فجأة، فنهتاز له جنبات القصر، ويثبت له الملك ومن معه من أصحابه كأنما دفعتهم اللوالب في الفضاء، وإذا هم يسرعون إلى الأطناف يشرفون منها لا يدركون كيف أسرعوا ولا كيف دفعوا، وإنما يرون أنفسهم مشرفين ينظرون وكأنهم لا يرون، ويصفون وكأنهم لا يسمعون لكثرة هذه الجماهير التي أقبلت إلى القصر فزعة فزعة تجأر بالاستغاثة وتمعن في الضراعة، وقد استيقنت مخطئة أو مصيبة أنها ستتجدد عند الملك أميناً من هذا الخوف وَوَزِراً من هذا الفزع.

والملك قائم مكانه ينظر ويصفى، ولا يزيد على النظر والإصغاء، وماذا يستطيع الملك أن يفعل وقد زلزلت الأرض زلزالها، ولبست السماء أ بشع ثوب رأه سكان الأرض والجو، فالظلمام يتکاثف، والسحاب يتراكم ويتدافع، والبرق يغمر المدينة بضوء مخيف لا يکاد ينصبُ عليها حتى ينقشع عنها، والرعد يتباوب في الجو بأصوات متهدجة كأنها أصوات الجبال، والبحر من بعيد هائج مائج تصطخب أمواجه اصطخاباً لا عهد لأحد به، وترتفع إلى السحاب فتتصل به لا يُدرى أبلغته لأنها ارتفعت حتى انتهت إليه، أم بلغها لأنه انخفض حتى انتهى إليها، أم صعدت هي في السماء ما وسعها الصعود وهبط هو إلى الماء ما وسعه الهبوط حتى التقت السماء والماء شر لقاء.

وفاتنة قائمة باسمة لا تقول شيئاً، ولا تأتي حركة، ولا يظهر على وجهها الروع أو ما يصور الروع من قريب أو بعيد. على أنها تسعي رفيقة رشيقه محفوظة بابتسامتها الحلوة حتى تبلغ أباها الملك، فتمس كتفه في خفة وسرعة، وتقول له في صوت هامس عذب: «منظر رائع يا أبت!»

ويهم الملك أن يقول شيئاً، ولكنه يُردد عن القول؛ فهذه المناظر الرائعة المروعة الهائلة ثابتة لا تحول مرسلة للروع والروعه جميماً دون أن يصيب المدينة منها شر أو يبال أهل المدينة منها مکروه. هذا البحر قد بلغ من الهياج أقصاه، وانتهى من الثورة إلى غايتها، حتى لا يشك من يراه أنه متتجاوز حدوده، ف GAMER ما وراءها لا يدع شيئاً أتى عليه إلا ازدرده ازدراً وعفى على آثاره تعفية لأن لم يغن بالأمن، وهو على ذلك واقف عند حدوده لا يتتجاوزها، بل لا يکاد يبلغها، لأن سدوا خفية قامت بينه وبين هذه الحدود ترده عنها وتنمعه أن يبلغها فضلاً عن أن يجوزها، وهو يثور ويمور ويهيج ويموج ويرسل في الفضاء أصواتاً منكرة، لأنها تتمزق عنها أمواجه تمزقاً، ولكنه على ذلك لا يبلغ شيئاً، ولا يستطيع أن يمس الأرض بأذى.

وهذه قطع السحاب تزدحم وتصطدم، وتحدث ما تحدث من بروق ورعود، وترسل ما ترسل من الصواعق المهلكة، ولكنها على ذلك لا تصيب أحداً بما يحب ولا تصيب أحداً بما يكره، وإنما هي تأتي ما تأتي من الأمر وتحدث ما تحدث من الهول لأنها تلعب فيما بينها تريد أن تظهر أهل الأرض على فنون من اللعب ليس لهم بها عهد من قبل.

وهذه الرياح تتناوح، منها ما يُقبل ومنها ما يُدبر، ومنها ما يُیامن ومنها ما يُشائم، ولها أحياناً هفيف كهفين الأغصان، وأحياناً أخرى فحيح كفحيف الحياة، وأحياناً أخرى صفير مخيف، وأحياناً أخرى زئير مزعج، ولكنها على ذلك لا تصنع شيئاً ولا تؤدي أحداً.

وهذه قطع من الجبال مختلفة ألوانها متباعدة أحجامها، قد أقبلت من بعيد، كأنما قذفتها المجانين تريد أن تمر بها المدينة تمثيلاً، وهي تمضي في الفضاء مسرعة على ضخامتها كأنها السهام الرقاق حتى لا يشك من يراها في أنها تحمل الموت والدمار، وفي أن قطعة منها يكفي أن تهوي إلى الأرض فتسحقها سحقاً، وتحقق ما عليها ومن عليها محققاً، ولكنها على ذلك لا تقاد تدنو من المدينة حتى تجمد في مكانها من الجو كأنها قد شددت إلى السماء بأمراس الكتان كما يقول الشاعر القديم؛ فهي لا تقبل ولا تدبر ولا ترتفع ولا تنخفض، وإنما تظل معلقة مكانها لأن كل قطعة منها ظلة هائلة قد علقت في الجو لترد عن أهل الأرض حر الشمس.

وهذه الأرض تنشق عمّا أضمرت، وتتفجر فيها ينابيع من اللهب هنا ومن الماء هناك، وترتفع هذه الينابيع المحرقة وتلك الينابيع السائلة في السماء إلى حيث لا يستطيع البصر أن يتبعها في الارتفاع، وإنما يرتد عنها خاسطاً وهو حسي، ولكنها على ذلك لا تحرق شيئاً ولا تغرق شيئاً؛ وإنما تمضي في ارتفاعها، وتمضي وتمضي في اتساعها، ثم تتضاعل قليلاً قليلاً، وإذا هي تهبط ثم تهبط، وتتضيق ثم تضيق حتى تعود هزيلة نحيلة إلى فوتها التي خرجت منها، ثم تنضم إليها الأرض لأن لم تكن شيئاً لتنشق عن مثلها في مكان آخر.

وعلى هذا النحو يضطرب الجو والبر والبحر أروع اضطراب وأشدّه هولاً، دون أن يحدث عن ذلك ما يؤذى أو يسوء.

وهذه جمادات الرعية من الجن كان يملؤها الروع منذ حين فجعلت تملؤها الروعة الآن. كانت تجار بالاستغاثة والضراعة آنفاً، فهي تجأ بالرضا والإعجاب والافتتان الآن. وهذا الملك ينظر إلى ابنته نظرات إن صورت شيئاً فإنما تصور ذهول الحائز الواجم الذي عجزت نفسه عن التفكير وانعقد لسانه عن القول؛ فهو قائم مبهوت في مكانه ومن حوله وزراؤه في مثل حاله كأنهم التماشيل.

وهوئاء قادة الجيش قد أقبلوا لا يدركون أيرضون أم يسخطون، فهم يرون ما يرون من الهول، ويحسون أنهم لا يلقون منه كيداً، وفيهم مع ذلك حماسة الجندي المستسلين؛ فكلهم كان يود لو يبلي بلاء ويسجل لنفسه بالانتصار أو الموت فخراً يتحدث به أعقابه بعد آلاف السنين، ولكنهم مع ذلك قد وجدوا أنفسهم وجنودهم عاجزين كل العجز عن أن يقدموا حين كان يجب الإقدام؛ يريدون أن يتقدموا إلى أمام فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً لأنهم قد ثُبُتوا في الأرض تثبيتاً، فإذا أرادوا أن يتراجعوا إلى وراء وجدوا ذلك هيناً ميسوراً.

وهم قد أقبلوا حائرين ثائرين يقولون بصوت واحد ولسان واحد: «هذا هو السحر أيها الملك! هذا هو السحر الذي لم يعرفه قبل اليوم أحد من الجن ولم يعرفه قبل اليوم أحد من الناس.»

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وهمْ شهريار أن يفكر فيما سمع من هذا القصص الغريب، ولكنه لم يصل إلى ما أراد من ذلك؛ فقد أحس نفسه ثقيلة عليه لا يستطيع تحريكها إلى التفكير، وأحس جسمه ثقيلاً عليه لا يستطيع دفعه إلى النشاط، وأحس كأن نفسه قد ثبتت في مكان بعينه لا تستطيع أن تجוזه، وكأن جسمه قد ثبت في موضعه فهو لا يستطيع أن يأتي فيه حراكاً، وأحس مع ذلك زورقه ذاك يتضطرّب به اضطراباً خفيفاً هيناً على الماء، كأنه أرجوحة الطفل تتضطرّب به اضطراباً خفيفاً لتدفعه إلى النوم. وأحس مع هذا كله ذلك الجو الموسيقي الغريب هادئاً حلواً رفيقاً يدنو منه هوناً ما، وينأى عنه هوناً ما، كأنه النسيم الهدائ يداعب صفحة البحيرة في تأنيق وترفق وظرف، ثم ينأى الملك من نفسه أو تنأى عن الملك نفسه، ويختلي إليه على هذا كله كأنه يرى فيما يرى النائم أنه في زورق جميل خفيف يسبح به وبشهرزاد النائمة منه غير بعيد في الماء والضوء والموسيقى والغناء جميعاً.

٦

على أن غناء عذباً يبلغ سمعه كأنه ترتيل الملائكة — لو أن للناس أن يسمعوا ترتيل الملائكة — فلا يكاد يمس سمعه حتى ينتهي إلى نفسه الشاعرة فيوقطها في أناة ويستلها من النوم في لطف، كما كان أبو نواس يستل من الدن روحه في لطف، وإذا الملك يفيق من نومه، ولكنه يمسك نفسه في هذا السكون الذي كان فيه قبل أن يخرج من النوم، كأنه كان يريد أن يستبني حلاوة هذا الغناء.

وكان يظن، كما يظن الحال حين يستيقظ، أنه يغاظ نفسه ويغاظل النوم، وأن اليقظة ذاتبة بلذة أحلامه لا محالة، ولكنه مع ذلك يسمع هذا الغناء العذب، ويحس موقعه من قلبه، ويتبين الأصوات التي تحمله والألفاظ التي تحويه، وكان هذه الأصوات كانت تصدر عن هذه الأمواج الصغيرة التي كانت تصطفق من حوله وتداعب زورقه هذا الغريب، وكان هذه الأمواج كانت تدعوه بصوتها ذلك العذب قائلة في لغة فارسية رقيقة حلوة: «أفق أيها الإنسان السعيد لستمتع باليقظة كما استمتعت بالنوم، ولتنعم

بالشعور كما نعمت باللاشعور. أفق أيها الإنسان السعيد؛ فما أقل الذين تناح لهم السعادة في حياتهم هذه القصيرة! خذ حظك منها حريصاً عليه كلّاً به؛ فإنك لا تدري متى تفارقك أو متى تفارقها؛ كما أنك لم تدر كيف لقيتها أو كيف لقيتك. أفق أيها الإنسان السعيد؛ فإن أخص ما تمتاز به السعادة أن الذين ينعمون بها لا يدرؤن أليقاظ هم أم نياً.»

ثم يبعد الصوت، ويتصاءل الغناء، ويتسمع الملك؛ فلا يسمع إلا اصطدام الأمواج هادئاً ناعماً رفيقاً، كأنه صوت الحرير يمس الحرير، ثم ينظر الملك فيرى شهرزاد في سيرها غير بعيد وعلى وجهها ابتسامة حلوة وإشراق رائق وبغطة لا سبيل إلى وصفها، وهي تمد إليها عينيها كما يمد إليها عينيه، ترید أن تقول له صامتة ما كان يريد أن يقول لها صامتاً: ما أعدب هذا الصوت وما أجمل هذا الغناء! ولكنها لا تقول شيئاً، كما أنه هو لم يقل شيئاً، وإنما تركت عينيها ممدودتين إليه كما ترك هو عينيه ممدودتين إليها.

ثم نمضي لحظات طوال أو قصار، وإذا الملك يستوي جالساً في نفس الوقت الذي تستوي فيه شهرزاد جالسة، وإذا الملك ينهض قائماً في نفس الوقت الذي تنهض فيه شهرزاد قائمة، وإذا الملك يسعى خطوات قصاراً كما تسعى شهرزاد خطوات قصاراً، وإذا العاشقان يتقيان فيتعانقان، فيغيبان في قبلة عرفاً أولها ولم يعرفا آخرها، ثم يفican، وإذا الزورق ينساب بهما في نهر ضيق هادئ كأن مياهه قد ثبتت في مجراتها، وقد گني شاطئاه عن يمين وشمال عشبًا أحضر كثيًّا كأنه السنديس. وينظران فإذا جماعات من الفتيات ينحدرن مسرعات عن يمين وشمال إلى النهر يحيبن بالزهر النضر والأغصان الخضر ويدعون العاشقين أن هَلْمَ قد بلغتما جزيرة النعيم.

ويرسو الزورق في مرسى قد هيئ له، ويصعد منه العاشقان صامتين، ولكن البهجة تغمر وجهيهما وتتنطّق عن قلبيهما بما لا تستطيع أن تتنطّق به الألسنة أو يصوره البيان المبين، وقل ما شئت والتمس عند القائلين ما أحببت من وصف الجنات الرائعة والرياض البارعة والحدائق الملتفة والغابات المتکاثفة والأزهار المنسقة والغدران المصفقة، فلن تبلغ مهما يكن حظك من ذلك وصف هذه الجزيرة التي ارتقى إليها العاشقان حين صعدا من زورقهما ذاك صامتين لا يقولان شيئاً.

وكيف تريدين على أن أصف لك ما لا يوصف، أو أن أصوّر لك ما لا سبيل إلى تصويره. لقد انعقد لسان شهريار لأنه أحس وعجز عن تصوير حسه، وانعقد لسان شهرزاد لأنها شعرت وعجزت عن تصوير شعورها، ومع ذلك فما أكثر ما قال الملك بعينيه لشهرزاد! وما أكثر ما قال لشهرزاد بعينيه للملك!

ويخيل إلى أن لو أتيح لكاتب أن يترجم بعض ما كانت تقوله هذه الأعين، لزعم أن شهرزاد كانت تقول للملك: أترى إلى هذا النعيم! لقد وعدتك به، و كنت أظن أنني سأكون أقدر منك على احتماله، وأنني سأكون منك مكان الترجمان يدلك عليه ويمتعك به ويصف لك دقائقه، ولكني مع ذلك لم أستطع أن أثبت لقوته ولا لرقته ولا لسحره، فانتهيت إلى مثل ما انتهيت إليه من العجز والاستسلام.

وكان شهريار يقول لشهرزاد: نعم! لقد قهر هذا النعيم قوتك الثائرة ونفسك الجامحة، كما قهر قوتي المتهاكمة ونفسني المستسلمة، ولقد سوئ بیننا في هذا الضعف الحال و هذه الراحة الممتعة أو هذا المتعة المريح: لقد أنزلك إلى حيث أنا، أو رفعني إلى حيث أنا، فأنا أراك الآن رأي العين، وأنا أعرفك الآن حق المعرفة، وأنا لا أدرى بأي الأمرين أنا أسعد حظاً: أبهاذا النعيم الذي يغمرك ويغموري، أم بهذه المعرفة التي جلت لي نفسك الغامضة وكشفت لي سر المكنون.

وكان شهرزاد ترسل إلى الملك من عينيها وشفتيها ابتسamas ساحرة لم تخل من سخرية، ولكنها كانت سخريّة واضحة يملؤها الحب والحنان، وليس لها حظ من قسوة أو مراره، وكانت هذه السخرية تلقي في روع الملك أن استمع بهذا النعيم الذي يغمرك ويغموري، واستمتع بهذا النعيم الذي تجده من جلاء نفسي الغامضة وانكشف سري المكنون، وخذ من هذين النعيمين أكثر ما تستطيع أن تأخذ؛ فإنك لا تدري متى ينحرسان عنك، كما أنه لا تدري متى يُسرا لك ولا كيف يُسرا لك. والشيء الذي ليس فيه شك، هو أنه ستعود ملماً تدبر أمور الناس وتصرفها كما تريده، وأنك ستعود رعية تدبر أمورك شهرزاد وتصرفها كما تحب، ولكن أرجو ألا يشق عليك تدبير الملك، وألا يتقلّل عليك غموض شهرزاد.

وبعد وقت لا أدرى أطّال أم قصر أحس الملك لسانه ينطلق وصوته يبلغ أذنيه، وإذا هو يقول: «أين نحن؟ وماذا نرى؟ وماذا نسمع؟ ألا تنبئني آخر الأمر من أنت؟ وماذا تريدين؟!»

قالت شهرزاد متضاحكة: «ماذا؟! ألم تقل عيناك منذ حين إنك قد عرفتني حق معرفتي، وإنك تنعم بهذه المعرفة؟! فما سؤالك عما تعرف؟ أين نحن؟ لقد سمعنا أننا في جزيرة النعيم. ماذا نرى؟ إنما نرى أشجاراً وأزهاراً ورياضاً وأنهاراً، بذلك تسميهما اللغة؛ لأنها تشبه من قريب أو بعيد ما تعودنا أن نرى في مملكتك تلك التي تركناها أمس، والتي لو أردنا أن نرجع إليها دون أن يعيينا قصص شهرزاد لما بلغناها قبل أن ينتهي ما قدر



لنا من عمر. ماذا نسمع؟ نسمع غناء تحمله إلينا أصوات هؤلاء الفتيات اللاتي نراهن ولا يريتنا. أتعرف من هؤلاء الفتيات؟!»

قال الملك: «ومن أين لي أن أعرفهن...؟! وهل عرفت شيئاً، أو هل عرفت أحداً مما رأيت ومممن رأيت منذ أمس؟!»

قالت شهرزاد: «قد عرفتهن، فأما هؤلاء الفتيات فإني أعرفك بهن إن شئت، ولكن أمسك عليك نفسك وأمسك عليك راحتك وأمسك عليك ما يملأ قلبك من غبطة وبهجة ونعييم. هؤلاء الفتيات هن اللاتي لم ترسلهن إلى الموت؛ لأن شهرزاد شغلتك عنهن بما قصت عليك من أنباء الماضي، وبما تقص علىك الآن من أنباء المستقبل، وستشغلك عنهن بما تعرف فيها وما تنكر منها منوضوح وغموض، فهن فرحتات مرحات، تراهن الآن يصورن النعيم كل النعيم، ومنهن الراضية كل الرضا، ومنهن الساخطة كل السخط،

ومنهن المترددة بين ذلك، ولكنهن على هذا فرحت مرحات فيما ترى؛ لأن حياتهن لم تقتضب في غير إبانها، ولأن شبابهن لم يُرَدْ عنهن رَدًّا عنيقاً».

وكانت هذه الألفاظ التي كانت شهرزاد تتنطق بها متقطعة متفرقة تبلغ أذن الملك لازعة، وتنتهي إلى قلبه موجعة، ولم تتمها شهرزاد حتى كان الملك قد ثاب إلى نفسه واستجتمع شعوره كله، وأخذ يعرض ما رأى يقظاً ونائماً، ولكنه ينظر فيري نفسه في زورقه ذاك، ويرى الزورق ينحدر به في النهر متوجهًا صوب البحيرة التي جاء منها، وعن يمينه وشماله تلك الجماعات من الفتيات يحيين بالأزهار والغصون والغناء، ولكن في تحيتهن حزنًا أشبه بهذا الحزن الذي تصوره تحية الوداع.

وينظر الملك إلى شهرزاد فيراها جالسة منه غير بعيد معرضة عنه وعن الزورق وعن شاطئ النهر الجميلين وعن جماعات الفتيات وما يحيين به أزهار وغصون وغناء، وقد أطربت تتنظر في كتاب.

قال الملك دهشاً: «تقرئين! يا عجبًا! أنى لك هذا الكتاب؟!»

قالت شهرزاد في لهجة التي لا تكرث بما تسمع ولا تهتم لما تقول: «يا عجبًا! أنى لنا هذا الزورق، وأنى لنا هذا النهر الذي تنحدر فيه، وأنى لنا هذه البحيرة التي نقبل عليها؟! انظر أيها الملك السعيد»، قالت ذلك وأشارت أمامها بيدها، ونظر الملك فلم تبهج نفسه لما رأى، وإن امتلأت إعجابًا به وعجبًا له.

فقد رأى النهر يتسع من ضيق، وينفرج من تقارب، ويشتدد البعد بين شاطئيه حتى يمتص بالبحيرة امتصاجًا، ورأى وجه النهر قد امتصع وأسبغ عليه شحوب عجيب يشيع في النفس ألمًا هادئًا وحزنًا فاترًا، ولكنهما على ذلك يؤذيان النفوس، وأحسن كأن كل شيء من حوله قد أدركه شيء من ذبول؛ فالنسيم فاتر فيه شيء من حرارة مؤذية، والأمواج متضائلة تصطفق اصطدامًا خفيًّا كأنما تحاول أن تشكو آلامًا خفية، فلا تستطيع الجهر بما تجد إلا في مشقة شاقة وعسر عسير، والطير تحاول أن تتغنى صافات في السماء أو راقصات على الغصون، ولكنها تتغنى فاترة حتى كأن غناءها أشبه شيء بالأنين أو الشكا، وأشعة الشمس هادئة ذابلة تمس ما حولها في فتور كأنها تصدر عن جذوة أو شكت أن تنطفئ، وهي من ذلك تحمل حراً رطبًا ثقيلاً تتدى له الجبال ويتصبب له العرق أحيانًا.

كل شيء هامد خامد، وكل شيء جامد راكم، وفي الجو فتور لا يتحمل وثقل لا يطاق، وإذا نفس الملك تمتزج بهذا كله، وإذا قلبه يخفق في صدره خفًّا ضئيلًا ثقيلاً، وإذا نفسه تصطبغ بحزن شاحب مُمضٌ، وإذا هو يصبح كله حزنًا وركودًا كما أن ما حوله حزن

وركود، وشهرزاد أمامه مطرقة مغرفة في القراءة كأنها لا ترى شيئاً ولا تحس شيئاً، وهي مع ذلك تخلس النظرة إلى الملك بين حين وحين تمد إليه طرفها لترده عنه، كأنما تراقبه حرية على ألا يشعر أنها تراقبه.

وقد أخذ ضوء الشمس يضعف شيئاً فشيئاً، وكأن النهار أحاسيس برد الموت يتمشى فيه، فجعل يرتدي من الظلمة معطفاً فاحمماً قاتماً ثقيلاً؛ ثم يحمد كل شيء ويحمد كل شيء، ويقف الزورق في مكانه كأنما شد إلى قاع البحيرة بسلاسل غلاظ ثقال.

وتنهض شهرزاد فاترة متثاقلة، وتقول في صوت هادئ متكسر: «انظر إليها الملك السعيد فإن النعيم والبؤس دولة بين الناس، ينعم بعضهم ويشقى بعضهم الآخر، وينعم الرجال منهم أياماً أو ليالياً من الدهر، ثم يشقى أياماً وليلياً أخرى، وينعم الرجل منها ساعة من نهار أو ساعة من ليل، ثم يشقى سائر ساعات النهار أو سائر ساعات الليل، وقد أخذت بحظك من النعيم، وأخذت بحظي منه؛ فلأنأخذ الآن بحظنا من البؤس، ولنستقبل الآن نصيبنا من الحزن، ولنتحمل الآن عبأنا من الشقاء».

وينظر الملك فيرى — ويا هول ما يرى! — يرى على شاطئ البحيرة من يمين وشمال شيئاً يشبه الرياض والجනات وما هو من الرياض والجනات في شيء، شيئاً يشبه أن يكون أشجاراً باسقة في السماء وما هي من الأشجار في شيء، إنما هي أشجار يخيل إلى الملك مرة أنها الشجرة ومرة أنها العمود قد ثبتت في الأرض وطالت في السماء وامتدت لها فروع تشبه أن تكون الغصون، ونبتت في هذه الفروع زوائد تشبه أن تكون الورق، وقامت على هذه الغصون وفي أثناء هذه الزوائد كائنات تشبه أن تكون الطير، وأسبغ على هذا كله ضوء ذابل فاتر شاحب يشبه أن يكون الظلمة لولا أن العين تنفذ منه إلى ما وراءه في كثير من المشقة والجهد والإعياء، وخرجت من أفواه هذه الكائنات التي تشبه الطير أصوات تريد أن تكون غناءً ولكنها لا تبلغ الجو حتى يكون بعضها بكاء وبعضها أنيناً وبعضها حشرجة كحشرجة الصريع المحتضر. هنالك يذعر الملك أشد الذعر، ولكنه لا يستطيع أن يترجم عما يجد، وإنما هي الرعدة تتمشى في جسمه كله فيضطرب اضطراباً عنيفاً، ثم تستقر لتأخذ الملك بين حين وحين، وقد انعقد لسانه واحتبس صوته وجعلت قطرات من الدموع تساقط على وجهه بين حين وحين، وهو مقبل على شهرزاد يريد أن يسألها أين هو؟ وماذا يرى؟ وماذا يسمع؟ وماذا يجد؟ ولكنه ليس في حاجة إلى هذا السؤال، فقد خلصت نفسه لشهرزاد، وخلصت له نفس شهرزاد منذ وقفوا معاً على شاطئ تلك البحيرة في ذلك الجو الموسيقي الرائع وأمام تلك الأسراط من الزوارق البدية.

لقد فهمت عنه شهرزاد، وهي تجبيه بلسان لم ينعقد، وصوت لم يحتبس، ووجه يستطيع أن يُبین عما يجده قلبها من حزن لاذع وغيظ يملؤه الحق ورحمة مع ذلك يملؤها الحنان: «انظر يا مولاي! هؤلاء ضحاياك! هذه الكائنات التي تشبه الطير وما هي بالطير، أتعرفها؟! إنها نفوس أولئك الفتيات اللاتي أرسلتهن إلى الموت منذ ثرت ثورتك المنكرة بالنساء فاتخذتهن أداة للهوك ووسيلة إلى إرضاء ما أفسد قلبك من غضب وما أفسد نفسك من انتقام.»

تستطيع أن تحصي هذه الكائنات فسترى عددها مطابقاً لعدد أولئك الفتيات اللاتي أهدرت كرامتهن في غير حب، ثم أزهقت نفوسهن في غير إشراق، فهذه النفوس قائمة في هذه الجنة التي تشبه الجحيم، أو في هذا الجحيم الذي يريد أن يكون جنة فلا يستطيع. إنها بائسة، إنها شاكية، إنها باكية، إنها الأصوات التي تسمعها تنطلق بالبؤس واليأس والبكاء والشكاة منذ أرسلتها إلى هذا المكان حتى تؤدي عنها حساباً يومياً ما، فاذرف ما تستطيع أن تذرف من دموع، واحمل ما تستطيع أن تحمل من حزن، واعمل ما تستطيع أن تعمل من خير، وتجرع ما تستطيع أن تتجرع من ندم، وأقم على هذا كله عمرك وأعماراً كثيرة تعدله طولاً، فلن تخسل قطرة من تلك الدماء التي سفكتها، ولن تُرضي نفساً من هذه النفوس التي أزهقتها، ولن تمحو سيئة من هذه السيدات التي اقترفتها إلا أن يمسك جناح من رحمة الله، وبينالك فضل من عفوه؛ فإن الله في الناس حكمة هو بالغها، وأمراً هو منفذ.

ثم يرق صوت شهرزاد ويلين حتى كأنه رحمة كله، وإذا هي تقول: «ومع ذلك — بل من أجل ذلك — قد أحببتك إليها الملك، وتحديث عندك الحب والملك والموت جميعاً، وما أدرني كيف أعلل هذا الحب أو كيف أفهمه؟ فقد كنت أظن أنني أبغضك أشد البغض، ولو لم أُرِف إليك لقتلت نفسي جزاً ويسراً، وقد كنت أظن أنني أستطيع أن أرددك عن ذلك الإثم المنكر الذي كنت غارقاً فيه، وما كان أحب إليّ مع ذلك أن أنعم بحبك ليلة ثم أذوق الموت بيديك وأتى إلى حيث أشارك هذه الطير فيما تعلن من بؤس ويسار و بكاء وشكاة، وقد كنت أقدر بعد أن ذقت حبك ونعمت بقربك أنني سأردد الموت عن نفسي وعن أمثالي من فتيات الدولة بما ألهيك به من قصص، وقلبي يشهد ونفسي تعلم أنني ما ألهيتك بالقصص إلا لأستأنف التعيم بحبك وأطيل السعادة بقربك؛ فقد كنت أثرة أظهره الإيثار، وكانت محبة لبني أزعم فداء غيري من النساء، وكانت كلفة بإثمرك البشع أريد أن أشرب كأسه من يديك وأؤخر شرب هذه الكأس ما وجدت إلى تأخيره سبيلاً.

وقد ظفرت منك بما أردت، وبلغت من حبك ما أحبيت، فشاركتك في سعادتك، وشاركتك في شقائك، وقاسمتك ما أتيح لك من نعيم، وشاطرتك ما قُضي عليك من بؤس، وعصمت منك نساء الدولة على غير إرادة مني، ومن يدرى؟! لعل آثرت نفسى من دونهن بخبيٍّ كُنَّ يطمعن فيه ويطمحن إليه، ففي نفوس الناس — وفي نفوس النساء خاصة — فسادٌ كثيرٌ وشرٌ عظيمٌ تخفيه صروف الحياة وخطوبها، وتظاهره محن الحياة وتجاربها، ومن يدرى؟! لعل إثمك ذلك المنكر قد جعلك فتنة العذارى كما جعلك فتنة لي، ومن يدرى؟! لعل اللاتي رددت عنهن الموت قد كن يحسدنني على هذا الموت، ولعلهن أن يحسدنني الآن على الحياة! بل من يدرى؟! لعل هذه الأصوات المهيبة الرهيبة التي تسمعها الآن لا تشكو منك، وإنما تشكو البعد عنك والشوق إليك، ومن يدرى؟! لعل هذه الشكاية الملحمة المؤذية أن تكون عفواً عنك واستغفاراً لك، فنفوس الناس عامة — ونفوس النساء خاصة — الغاز مشكلة معضلة قد عجزت عن حلها حتى فطنة شهرزاد. إن هذه النفس الغامضة التي نَفَّضت أيامك وأرْقَت لياليك لا تمتاز بشيء، وإنما هي نفس امرأة لا أكثر ولا أقل. أملاً نفسك إذاً أيها الملك من هذا الشقاء الذي تشهده الآن، كما ملأتها آنفًا من تلك السعادة التي شهدتها في جزيرة النعيم، واستقبل ليك وقد ملأت نفسك من البؤس والنعيم جميعاً! فإنك لا تدري أين يجذك الغد، ولا عمَّ يبتسم لك الصبح، ولا ماذا تضرم لك الأحداث.».

ويحس الملك كأن يد شهرزاد تمضي رفيقة في شعر رأسه فتبعت في جسمه طمأنينة وهدوءاً، وفي نفسه أمناً وراحة ورُوحًا، ثم ينسى الملك نفسه أو تنساه نفسه، ولكنه يفيق وقد تقدم الليل وأطبقت الظلمة من حوله على كل شيء إلا ذُبالة ضئيلة في ناحية من نواحي الزورق تنشر ضوءاً هادئاً غريباً، وصوت يعرفه ويتألفه يقول: «فلما كانت الليلة الثالثة عشرة بعد الألف قالت شهرزاد.»

ثم ينقطع هذا الصوت المعروف المألوف ويصل إلى الملك صوت شهرزاد فاتراً أول الأمر، نشيطاً بعد ذلك قليلاً قليلاً وهو يقول: بلغني أيها الملك السعيد أن قادة الملك طهمان بن زهمان أقبلوا عليه حائرين ثائرين يقولون: «إنه السحر أيها الملك! إنه السحر الذي لا عهد به من قبل لأحد من الإنس أو من الجن!»

قال الملك: «نعم، إن السحر الذي لا أعرف له مبدأ ولا منتهى..» ثم التفت إلى ابنته فاتنة كأنه ينتظر منها أن تجيب على ما قال هو وما قال القواد، ولكن فاتنة ظلت قائمة باسمة، في وجهها إشراق يصور نفساً فرحة مستريح، ويسور شيئاً من الإعجاب والرضا، ويسور كثيراً من الأمل والثقة والفوز.

فلما سمعت مقال أبيها ورأت التفاته إليها، قالت في طمأنينة وهدوء: «إنه السحر لأنه غير مفهوم، وسيظل سحراً ما دام سرّاً مكتوماً، فإذا أزيلت عنه الأستار وفُهمت مخباته أصبح علمًا شائعاً يشارك فيه القادرون على فهمه والنهوض بأعبائه.»

قال الملك: «ومتى يمكن أن يُفهم، وأن يُكشف عن مخباته؟!»

قالت فاتنة: «بینا وبين ذلك آماد يا أبٍت، فيجب قبل كل شيء أن تنجي الغمرة، وتكشف الغمة، ويرد المغiron إلى أوطنانهم مقهورين. ماذا أقول؟! بل يجب أن يستسلم المغiron، وأن ينزلوا من هذا القصر نفس المنزلة التي كان كل واحد منهم يريد أن أنزلها من قصره.»

قال الملك: «فأنت تريدين إذاً أن يستأسروا.»

قالت فاتنة: «ما من ذلك بُدُّ. يجب أن يستأسروا، ثم يجب أن يذعنوا ويؤمنوا ويتلقو ما يُملّ عليهم من أصول الصلح التي يقوم عليها نظام الحكم عندم وعندنا، فليست المسألة أن تثار الحرب ثم تخمد نارها، وإنما المسألة أن تُمنع الحرب من أن تثار أو أن تُمنع الحرب إذا أثيرت من أن تصيب الأبرياء بما لا ذنب لهم فيه ولا حق لأحد أن يصبه عليهم من الموت والدمار.»

قال الملك وقد أخذ الرضا يعود إلى قلبه، وجعل البشر يفيض من وجده: «هذا كثير يا ابنتي! هذا أكثر مما كنت أرجو! هذا أكثر مما كنت أنتظر! هذا أكثر مما كنت أظن! إنك لتكتفينا أعظم مما نستطيع أن نتحمّل، وتنقلين بنا بين اليأس والأمل وبين الخوف والأمن في سرعة ولباقة لا قبل لنا بهما، ولكن أبيني يا ابنتي كيف السبيل إلى أن تبلغني من خصومك ما تريدين، وهؤلاء قوانا يريدون أن يقدموا فلا يتاح لهم الإقدام؟ لقد وقف حَصْمك عن الهجوم ومنعتهم أن ينالوا منا ما يحبون، فأبلغينا منهم ما نحب، وخلي بين حيوشنا وبين الهجوم، فلما أظن أنك تريدين أن تتوافق الجيوش على هذا النحو دون أن يستطيع فريق أن يبلغ من عدوه شيئاً.»

قالت: «بل أنا لا أريد غير هذا يا أبٍت.»

ثم ابتسمت له ابتسامة ملؤها الحنان والبر وقالت: «ألم تكن تذَرْنِي منذ حين يما يجب أن يستشعر قلبي من الرحمة والرفق، لا برعيتنا وحدها ولكن برعية هؤلاء المعذبين أيضاً؟ فإن هذه الحرب، كما كنت تقول، لا تعنى رعيتنا ولا رعاياهم من قريب أو بعيد؛ وإنما هي شهوة جامحة دفعتهم إلى الشر والكيد، فأردت أن ألقى شرهم بمثله، وأن أدبر لكيدهم كيداً مثله؛ فما ينبغي أن نغامر نحن ويشقى الأبرياء، وما ينبغي أن يمس رعيتنا

أو رعية أعدائنا سوء، وإنما الحرب بيننا وبينهم تنافس في قوة الإرادة، وتسابق إلى الصبر على المكروه، فأينا ثبت حتى يستسلم خصمه فهو المنتصر، وأينا سئم قبل أن يسام عدوه فهو المهزوم، وما على الرعية إلا أن تشهد هذا الصراع الذي تجري أحداشه بين سادتها وقادتها، لتعجب بهم إن شاءت، فقد يكون من بينهم من هو خليق بالإعجاب، ولتسخر منهم إن أحببت، فقد يكون من بينهم من هو جدير بالسخرية، ولكن لتؤمن على أنفسها ودمائهما وأموالها ومرافقها على كل حال.»

قال الملك: «مرحى يا ابنتي! ما أحسن وقع ما تقولين في نفسي! وما أحبه إلى قلبي! وما أدناه إلى المثل الأعلى الذي طالما أمّلتُه وسموتُ إليه دون أن أبلغه! أيمكن يا ابنتي أن تبلغيه؟! أيمكن أن تبلغيه وأنا حاضرأشهد فوز الخير على الشر وانتصار الرحمة على القسوة؟»

قالت فاتنة: «فإنك تشهد هذا كله يا أبتي. لن ينالنا أعداؤنا بما نكره، ولن نتال أعداءنا بما يكرهون، ولكنهم سيغدون قوتهم في غير طائل، وسيكسرون حدتهم في غير غناء، وسيضيعون ما ادخرنا من عدة وما هيئتوا للحرب من أداة دون أن يحصلوا من وراء ذلك شيئاً، وسيفقدون سمعتهم فيما بينهم، وسيفقدون سلطانهم على رعاياهم، وسينقلب بعضهم لبعض عدواً، وسيصبح بأسمهم بينهم شديداً.»

قال أحد القواد: «ونحن أيتها الأميرة ماذا نصنع؟ وما حاجة الدولة إلينا منذ اليوم؟ وما قيمة جيوش لا تخوض غمار الحرب ولا ترد عدون المعتمدي ولا تدفع غارة الغير؟»

قالت فاتنة: «فإن الجيوش وسيلة لاتقاء الحرب لا لابتغائها، وأداة لدفع الشر لا لاحتلابه. أ فإن جنَّبْتُكم الحرب وضمنتُ لكم السلام والعافية تضجُّون وتتعجّلون؟! من شاء منكم أن يغامر فليغامر بنفسه لا بالأبراء من جنده. أضمنتُم أن يُقبل جنودكم على الحرب محبين لها راغبين فيها! ألسْتُم تعلمون فيما بينكم وبين أنفسكم أن كل واحد منهم يُؤثِّر أن يفرغ لحياته وعمله وأهله، وأن يأخذ نصيبه من الدنيا دون أن يُعْجله عنه هذا الموت الذي تقضونه عليه لا لشيء إلا لهذه المغامرة التي تجري مع دمائكم وتدفعكم إلى هذه الأهوال التي تحبونها لأنكم بآمن من آثارها؟!»

قال القواد: «فهل نفهم من ذلك أن الأميرة تعفينا من أعبائنا، وتردنا إلى حياتنا الخاصة، وتُسرّح الجيوش، وتُفرّق الجندي؟»

قالت فاتنة: «لا تفهموا من هذا شيئاً، فلا أملك أن أعفي منكم أحداً، ولا أشير على الملك بأن يعيي منكم أحداً، ولا بأن يسر الجيش ولا بأن يفرق الجندي فالحرب محتملة

دائماً، والشر متوقع أبداً، وخير أن نحتاط للكوارث قبل أن تقع، فعل ذلك أن يمنع وقوعها، فعودوا إلى مواضعكم من قيادة الجيش واثبتوها، فمن يدري؟! لعل الملك يحتاج إليكم».

وانصرف القواد وهم إلى السخط أقرب منهم إلى الرضا، وإلى المعصية أدنى منهم إلى الطاعة. فلما تفرقوا قالت فاتنة لأبيها: «لقد انصرفوا، وإن قلوبهم لطوية على غير الوفاء والولاء. ولكن التي عرفت كيف ترد عدوان المغير الخارجي تعرف كيف تكبح ثورة التأثيرين في داخل الوطن».

قال الملك: «ألم يأن لك يا ابنتي أن تكاشفي أباك بشيء من هذه الأسرار التي عُمِّيت عليه وعلى أهل المملكة جميعاً؟ وما أرى إلا أنها معمّة على أعدائنا، فانظري إليهم حائرين ينفقون جهوداً لا تحصى، ويحتملون أثقالاً لا تستقصى، ويرون مع ذلك أنهم ثابتون في أماكنهم التي كانوا ي يريدون أن يغيروا علينا منها».

ولم يكن الملك يقول إلا حقاً! فقد كانت تلك المناظر التي وصفناها آنفاً قائمة كما هي لم تتبدل: بحر مضطرب مصطخب تكاد أمواجه تبلغ السماء، ولكنها لا تكاد تبلغ الساحل، ورياح متناوحة متصايبة، وسحاب متراكم متراكب، وقطع من الجبال تدور في الجو تلتقي وتفرق وتفرق لتلتقي، ورعاية الملك طهمان بن زهمان قد ثاب إليها الأمن وعادت إليهاطمأنينة، وجعلت تشهد هذه المناظر الرائعة معجّة بها راضية عنها، متسلية بما تشهد منها، كأنها في ملعب من ملاعب التمثيل، أو في ميدان من هذه الميادين التي تعرض فيها الأعاجيب.

وقد أخذ أفراد الرعية يتحدث بعضهم إلى بعض عن بدائع هذا السر وروائعه، ويسأل بعضهم بعضاً عن مصدره ومدبره، وقد سرى فيهم سريان البرق أن الأميرة هي مصدر هذا السحر وهي التي دبرته وقدرته، ورددت ملوك الجن مدحورين في البر والبحر والجو جميعاً.

وكان أفراد الرعية يسمعون عن الأميرة أحاديث مختلطة مضطربة، يعرفون جمالها الرائع وحسنها البارع، ويعرفون فتنتها وفطنته، ويعرفون ذكاءها ونفذ بصيرتها إلى ما لم تنفذ إليه قط بصائر الملوك والملكات، ولكن هذا كله كان يُلْقى إليهم إلقاء، فَيُصدّق حيناً ويرفض حيناً آخر، ويُسمّع في غير اكتتراث أكثر الأحيان، فاما الآن وقد رأت الرعية ما رأت وشهدت ما شهدت، فأما الآن وقد كان الهول منها قيد إصبع ثم رُدَّ عنها رُدًّا عنيفاً، فاما الآن وهي ترى الهول قريباً منها بعيداً عنها، محدقاً بها عاجزاً عن أن يصيّبها؛ فقد

أصبح إيمانها بالأميرة فتنة لا تشبهها فتنة، وأصبح اسم الأميرة في كل فرد من أفراد الرعية لفظاً يدل على حقيقة واقعة لا على لون من ألوان المجاز؛ فكل فرد من أفراد الرعية مفتون بالأميرة مشغوف بحبها هائم يقدرتها على ابتكار الأعاجيب، وربما كان الملك أعظم من أفراد رعيته جميعاً افتناناً بابنته وإعجاباً ببراعتها وإكباراً لسحرها هذا الذي ظن به الظنون، ثم تبين أنه لم يوجه إلى الشر كما تعود السحرة من الجن والإنس أن يوجهوا سحرهم، وإنما هو موجه إلى الخير كل الخير، موجه إلى عصمة النفوس وحقن الدماء وإقرار الأمن وحماية الصلات التي تقوم بين الدول على المودة والمعروف. وهو من أجل ذلك يلح على ابنته في عطف مرة وفي استعطاف مرة أخرى أن تكشف له عن أسرار هذا السحر، وأن تبين له دخائل هذه العجذات، وابنته تطاوله وتماطله، تلطف به حيناً وتعنف عليه حيناً آخر، والعدو من حول المملكة والمدينة ماض في جهاده العنيف السخيف الذي يكلفه كل جهد، ولا يبلغه من وراء هذه الجهد شيئاً.

وتمضي على ذلك الأيام تتلوها الأيام، والليلي تتبعها الليلي، حتى انصرفت رعية طهمان بن زهمان عما كانت ترى، وأعرضت عما كانت تشهد، وأهملت ما كانت تخافه كل الخوف، وازدرت ما كانت تُعجب به كل الإعجاب، ومضت تضطرب في حياتها تستأنف منها ما كانت قد تركته حين ألمت بها نذر الحرب، وكان الواحد من الجن من أهل المملكة يغدو على عمله ويروح إلى أهله ويتصرف في أمره كأن وطنه لم يتعرض لمحنة ولم يلم به مكروه، وكأن جند العدو لا يملأ من حوله البر والبحر والجو، وما يعنيه من عدو يُفني قوته دون أن يبلغ منه شيئاً؟

فلما كان ذات يوم جلس الملك يحاور ابنته ويداورها، يريد أن يعرف منها جليّة هذا الأمر الغريب، وهي تلقاه بالإباء حيناً وبالدل والدعاية حيناً آخر، ولكن وزيره يدخل سعيّداً متھلاً، فيحيي ثم يؤذن الملك بأن سفراء العدو قد أقبلوا يُلقون بأيديهم وبسائلون السلم.

قال الملك: «فوجّه هذا الحديث إلى التي حاربتم فَحَرَبْتُم، فأما أنا فلست لكم بملك منذ اليوم؛ لقد أخذت نصيبي من الملك وتركت ما بقي منه لابنتي هذه؛ فهي ملككم منذ الآن، وهي التي ستلقى السفراء وستتملي عليهم شروط السلم كما تشاءها هي لا كما أشاؤها أنا».»

ثم نهض الشيخ متثاقلاً فضم ابنته إليه ضمًّا طويلاً، ثم أجلسها مكانه وقدم إليها تحية الملوك. هناك تقدم الوزير إلى الملك فحياتها تحية الملك، ثم خرج فأدان في القصر

والمدينة والملكة بما كان من ارتقائهما إلى العرش ونهاوضها بأعباء السلطان، وبأنها هي التي ستلقى السفراء وستتملي عليهم شروط السلم كما تشاء.

وما أكثر ما وصفت لك يا مولاي ابتهاج المدن والممالك حين ينزل ملك عن العرش ويرقى إليه ملك آخر! فقد ابتهج قصر فاتنة ومدينتها ومملكتها بارتقاءها إلى عرش آبائهما كما تعودوا أن يبتهجوا كلما تخلى عن عرشه ملك وارتقى إليه ملك، ولكن ابتهاجهم في هذه المرة كان خالصاً صفوياً لا يخالطه حزن ولا يشوبه أسى.

فقد كان طهمان بن زهمان حياً بينهم ينتظرون أن يروه لم يفارقهم إلى غير رجعة، وكان حبهم له يزيد في ابتهاجهم بابنته، وكان إعجابهم بفاتنة يخرج بابتهاجهم عن الأطوار المألوفة، ولو أن رعية عبد ملكاً لعبدت رعية فاتنة ملكتها.

وكان طهمان بن زهمان نفسه أسعد الجن بهذا الحدث العظيم؛ فقد كان يحب ابنته ويعجب بها ويفتن ببراعتها كما قلت، وكان يرى ارتقاءها إلى العرش حقاً وعدلاً قد ردَّ السلطان إلى أهله ووكل الأمراً إلى من ينبغي أن يوكل إليه الأمر، وكان يرى نفسه أسعد من تقدمه من ملوك الجن، فقد ختم ملكه عصراً قدِيمَاً مضى بحسنته القليلة وسيئاته الكثيرة، وبدأ ملك ابنته عصراً جديداً يظهر أن الحسنات فيه ستكون أكثر جداً من السيئات، ومن يدرى؟! لعله أن يكون خيراً كله، وكان طهمان بن زهمان ناعم البال قرير العين مبتهج النفس؛ لأنه يشهد هذه النقلة الخطيرة في حياة الجن، ويشهد لها تتم على يد ابنته التي يؤثرها بالحب والعطف والحنان، وكان يقدر أنه قد أنفق ما أنفق من آلاف السنين، وأنه قد أشرف من حياته على آخرها، ولكنه مع ذلك يائس في نفسه قوة وأيداً، ويحس أن سيد له في العمر حتى يرى ابنته وهي تدبر أمور الملك، ولا يشك في أنه سيرى من تدبيرها العجب العجاب.

وانتهت أعياد المملكة، وأن للسفراء أن تستقبلهم الملكة، فاستقبلتهم في حفل سانج يسير لم يتعدوه القصر ولم تتعوده الرعية، فلم تقم زينات ولم يصطف الجناد ولم تجلس الملكة للناس في ذلك البهلو العظيم من أبهاء القصر، وإنما خلت إلى أبيها في غرفته تلك التي كانت تخلو فيها إليه، وأذنت للوزراء وقادرة الجن وساسة الملك، فلما أخذ كل منهم مجلسه أذنت للسفراء؛ فلما دخلوا عليها وتقديموا بتحية ملوكهم وسادتهم وهموا أن يطلبوا إليها السلام، وأشارت بيدها فاستمعوا لها، فأقلت إليهم هذه الكلمات في صوت هادئ ملأ قلوبهم رهباً ورعباً. قالت: «تعلمون أن هذه الحرب لم تثر بين دولنا وإنما أثارها أشخاص ملوككم على شخصي، فلا سفارة في هذه الحرب ولا سفارة في هذا الصلح؛



فعودوا إلى ملوككم موفورين، وأبلغوهم أن من أراد منهم صلحًا فلياتمسه بنفسه ساعيًّا
إليه لا مسيراً فيه.»

وادرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

وامتنع النوم على شهريار هذه المرة بعد أن انقطع حديث شهرزاد، ولكنَّ أرقه لم يكن ثقيلاً عليه ولا بغيضاً إليه في هذه الليلة؛ فلم يحتاج إلى أن ينهض من مضجعه، ولم يشعر بالحاجة إلى النشاط الذي يذهله عن نفسه ويشغله عن خواطره، وإنما كان حريصاً أشد الحرص على أن يخلو إلى نفسه ويفرغ لخواطره بعد أن شغل عنها وقتاً طويلاً، بما مر به من الأحداث وما ألقى إليه من الأحاديث، وكان كل همه أن يخطئ النوم طريقه إليه، وأن يبقى هو في مضجعه وادعًا مطمئنًا يستعرض حياته هذه المعقدة أشد التعقيد الملتوية أشد الالتواء، يستحضر ماضيه البعيد والقريب، ويحاول أن يتصور حياته فيما يستقبل من الأيام، وكذلك أتفق بقية الليل مع نفسه ناظراً بين حين وحين إلى

شهرزاد، وهي مغرقة في نومها الهادئ كأنها لم تقص عليه شيئاً ولم تتحدث إليه بشيء، وكان يذكر أيامه تلك السود حين كانت امرأته تلك تخدعه عن نفسه وعن حبه وعن شرفه وتزدريه فيما بينها وبين نفسها أشد الازدراة، تستعين على ذلك بوسائلها وجواريها، غير حافلة بما أعطت على نفسها من عهد، ولا آبهة لجلال الملك ولا مقدرة لعواقب الخيانة والغدر، وكان يذكر مرارة الانتقام وحلاوته، ونار الغيرة تلك التي كانت تتاجج في صدره فتحرق قلبه تحريراً، وكانت مع ذلك بربماً وسلاماً على نفسه الجريحة التائرة.

ثم كان يذكر تلك الأيام السود التي أنفقها بعد مصرع نساء القصر نهباً مقسماً بين لذة الحب وشهوة الانتقام، يُقبل على اللهبو بقلب يظهر الفرح والفرح والابتهاج والغبطة، وفي ضميره الغيظ والحنق والبغض الذي لا يطفئ جذوته إلا الدم المسفوک. وكانت أيامًا يشرق فيها ضوء النهار، أم كانت ليالي مظلمة لا يهتدى الضوء فيها إلى سبيل؟! أكان في تلك الأيام إنساناً يحس ويشعر ويفكر ويقدر، أم كان قوة مدمرة لا تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالرميم؟!

ثم كان يذكر شهرزاد حين عرضها عليه أبوها الوزير وفي نفسه كثير من خوف وقليل من رجاء، وحين أقبلت إليه مع الليل تظهر حباً وثقة وتضمر بغضنا وخوفاً، ومن وراء ما تظهر وما تضمر حيلة واسعة وذكاء عجيب نفاذ.

ثم يذكر هذه الليالي المتتابعة التي شغلته فيها شهرزاد بنفسها وقصصها عن الحب والبغض، وعن الغيرة والانتقام، وعن نفسه وملكه؛ حتى إذا انقضى القصص وردد إلى نفسه ملكاً كما كان في تلك الأيام السود، ردت إلى نفسه خواطرها الحمر وعواطفها التائرة وشهواتها المضطربة المختلطة، وردد إليها قبل كل شيء هذا القلق المتصل الذي يفسد الحياة على الأحياء، ونظر فإذا هو بين نفسه هذه المضطربة القلقة التائرة التي لا يستطيع أن يخلو إليها، وبين شهرزاد هذه المحبة المبغضة الرحيمة القاسية الفاتنة المفتونة الواضحة الغامضة، التي لا يعرف لها كثيناً ولا يطمئن منها إلى حال، وهو مقسم بين هذين النوعين من العذاب، يخلو إلى نفسه فيشقه القلق والخوف، ويخلو إلى زوجه فيشقه الحب والشوق إلى المعرفة واليأس من إرضاء الحب ومن إرضاء الشوق إلى المعرفة.

ثم يذكر تلك الليلة التي آذنه فيها طائفه ذاك بأن شهرزاد ستستأنف الطبع لنفسه نائمة بعد أن كانت تطلب لها يقطة، وإذا هو يسمع من هذا القصص ما يسمع، فينعم بشهرزاد نائمة ويشقى بها مستيقظة.

وتشعر هي بذلك فتريد أن تطب له في الحالين، فتختلط يقظته بنومه وتجعله يحلم نائماً ويقطنان. وإلا فأين هو الآن؟! أين هو من قصره ومدينته ملكه؟! أين هو من جنده

وحاشيته؟! أين هو من غرفته وأحراسه؟! ما هذا الزورق؟! وما هذه البحيرة التي يسبح فيها الزورق على غير هدى؟! كيف انتهى إليها! كيف حُمل عليها؟! ماذ رأى فيها؟! مازا عرف منها وماذا جهل؟! أنائم هو أم يقطن؟ أحالم هو أم عالم؟ أعقل هو أم مجنون؟ ولكن مازا؟ هذا صوت حلو يبلغ سمعه، إنه صوت شهرزاد، إنها تتحدث إليه، لقد أفاقت من نومها، إذاً أين هو من الزمن؟ أفي الليل هو أم في النهار؟! إنه يفتح عينيه ويقلبهما في كل وجه فيرى نوراً لا يشبه النور وظلمة لا تشبه الظلمة. أنائم هو أم يقطن؟ أحالم هو أم عالم؟ أعقل هو أم مجنون؟ ولكن حديث شهرزاد يصل إلى أذنه، ما في ذلك شك، إنها تدعوه وتلح في الدعاء، إن صوتها لا يخلو من دعامتها الساخرة الساحرة، إنها تتبئه بأنه ليس نائماً ولا حالاً ولا مجنوناً، ولكنه يقطن عالم عاقل، يحس نفسه كما هي، ويحس الأشياء من حوله كما هي، ويسمع صوت شهرزاد التي تتحدث إليه ويفهم عنها حديثها حق الفهم، ولكنه لا يكاد يطمئن إلى هذا الحديث. إنه ينكر هذا الطور من أطوار الزمن الذي لا يشبه النهار كما عرفه ولا يشبه الليل كما ألفه؛ لأنه ليس في عالم الليل والنهار، وإنما هو في عالم غريب من عوالم القصص. أفق يا مولاي من نومك إن كنت نائماً، ومن يقظتك إن كنت مستيقظاً؛ فلست في عالم الليل والنهار، ولست في عالم النوم واليقظة، ولست في عالم الحلم والعلم، وإنما أنت في عالم يختلط فيه هذا كله، ويشتبه فيه هذا كله، ولا تميز فيه إلا نفسك وإلا حبيبتك، شهرزاد. أفق يا مولاي أو لا تتفق؛ فإن كلا الأمرين سواء. اسمع مني وتحدث إلىَّ أو لا تسمع مني ولا تتحدث إلىَّ! فقد خلصت نفسك لي كما خلصت نفسي لك، فليفرغ كل منا لصاحبها، فقد غفل عنا كل شيء لأننا خرجنا من كل شيء وبعدنا عن كل شيء. افهم يا مولاي أو لا تفهم؛ فليس من المهم أن تفهم أو لا تفهم، وإنما المهم أن تحدث نفسك إلىَّ نفسي، وأن يصل إلىَّ نفسي حديث نفسك سواء أحمله إلىَّ الصوت أم انتهت به إلىَّ نجوى الضمير.

وأنفق الملك ما شاء أن ينفق من الوقت غائباً عن نفسه وشاهداً لها، يحس في قوة لذة مؤلة أو أللما لذيداً، قد فني في شهرزاد وفينت فيه شهرزاد، فعرف الحب حين يبلغ أشد أطواره عنفاً، وعرف الحب حين يبلغ أعظم أطواره رقة وليناً ولطفاً. يجد ذلك كله في نفسه، ولكنه لا يحسن تصوره ولا تصويره ولا وصفه ولا التعبير عنه. إنما امتزجت نفسه بنفس حبيبته، فأصبحا حبّاً خالصاً يصبح بهما زورق غريب في بحيرة غريبة وفي عالم ليس إلى تصوره ولا إلى تصويره من سبيل. عالم كان يقرأ عنه في الكتب حين كان المتضوفة يعرضون ما يعرضون من تلك الأطوار الغريبة التي لم يكن يتصورها ولم يكن

يصدق أن إنساناً يستطيع أن يبلغها. تكون شهرزاد هاديتها إلى التصوف ومرشدته إلى الحقائق العليا وإلى عالم المعرفة الذي تطمح إليه نفس الإنسان طموحاً غامضاً وتشقي لأنها لا تبلغ منه ما تريد!

ومهما يكن من شيء، فقد أخذ الملك يثوب إلى نفسه قليلاً قليلاً، ويجد في هذا أمّا ممضاً، ويحس كأنه يدفع إلى عالم لا عهد له به، وكأن نفسه قد أصبحت غريبة في هذا الجسم الذي تُرد إليه، وكأنه قد ارتقى في الجو إلى أبعد ما يمكن أن يرتقي، ثم أهبط فجأة إلى الأرض، فكاد يختنق من سرعة الهبوط، وكادت نيات قلبه أن تتقطع من شدة ما حبس عنه الهواء.

وأخذ الملك يحس كأن شهرزاد إلى جانبه تجد مثل ما يجد، وتتألم مثل ما يتألم، ويعاودها الشقاء كما يعاوده الشقاء، ثم ينظر فإذا هو إلى جانب شهرزاد قد وضع يده في يدها ينتظر إليها دهشاً وتنظر إليه دهشة، والزورق يسبح بها دائماً في الماء والضوء والموسيقى والغناء. هناك يسمع الملك صوت نفسه وهو يسأل شهرزاد وكأنه يأتي من بعيد: «أين نحن؟! ماذا نسمع؟! ماذا نرى؟! لا تنبئيني آخر الأمر من أنت وماذا تريدين؟!» ثم يسمع ضحك شهرزاد ساخراً ساحراً وصوتها مداعباً ملاعباً وهو يقول: «لقد رجعت إلى مولاي ورجعت إليك بعد غيبة طويلة».

انظر! هذه شهرزاد تتحدث إلى شهريار في زورق من زوارق القصر على تلك البحيرة التي أشرف عليها القصر يوماً ما، ومدّ إليها وما زال يمد إليها يداً كأنه يريد أن يهوي إليها أو أن يأخذ منها شيئاً. انظر يا مولاي! أترى إلى هذه الأسراب من الزوارق تزينها الغصون الخضر والورق النضر والزهر البهيج! إنها تسبح فيها كما يسبح هذا الزورق، وفيها أزواج من الفتيات والفتيان قد نعموا كما نعمنا وألموا كما ألمنا، وهم يعودون إلى حياتهم الهامة الجامدة الراكدة كما نعود إليها، وفي نفوسهم مثل ما في نفوسنا من الحزن، وفي قلوبهم مثل ما في قلوبنا من الأسى. انظر يا مولاي! أملاً عينيك مما ترى، وأذنك مما تسمع، ونفسك مما تشهد، فلن يبقى لك من هذا كله إلا الذكرى. انظر يا مولاي! بحيرة من ماء يغمرها بحر من ضياء، وبحر من موسيقى، وبحر من غناء، ويقوم عليها إلى حين قصر ملك من الملوك شقي فيه وسعد، ونعم فيه وابتأس، ثم خرج منه فخرج من سعادة الناس وشقائهم، ومن نعيم الناس وبؤسهم حيناً طويلاً أو قصيراً، ثم هو يعود إليه ليستأنف فيه حظه من سعادة الناس وشقائهم ومن نعيم الناس وبؤسهم.» قال الملك في صوت حزين كأنما يأتي من بعيد: «أليس يمكن أن ننأى عن هذا القصر إلى آخر الدهر؟!»

قال شهرزاد: «ليس ذلك في طاقة القصص يا مولاي؛ وإنما القصص فرجة من حياة الناس تطل على عالم المثل العليا، يخرج الناس منها ليعودوا إليها. هلم يا مولاي! ألا ترى أن الزورق قد انتهى بنا إلى حيث دعانا إلى نفسه منذ حين؟! ألا تسمع دعاء القصر؟! إنه يلح علينا في أن نصد لننعم كما كنا ننعم، ونأسى كما كنا نأسى.»

وتنهض شهرزاد وتأخذ بيد الملك، وإذا هما في ذلك البهو الذي تباعدت أرجاؤه، وتباعدت أطراقه، وأحاطت به البحيرة من جهاته الثلاث، وغمراه ذلك الجو الغريب من الموسيقى والغناء، وإذا شهرزاد قد أجلست الملك في مجلسه ذاك وجلست إلى جانبها رفيقة به عطوفة عليه، تسأله بصوتها الهادئ العذب الذي يمتزج بما حوله من الموسيقى: «أيرى مولاي أن شهرزاد قد وفت بما قدمت له من وعد؟»

ثم ينظر الملك فلا يملك أن يدفع صيحة منكرة ملؤها الدهش والحق والغريب: «ماذا؟ أين أنا؟» ولكن رئيسة الوصائف تتقدم إليه فتحبيه ثم تقول: «أرجو أن يكون مولانا قد أنفق وقتاً سعيداً.»

٧

وأوى الملك إلى مضجعه من ليلته تلك، وأحب شيء إليه أن يعود إلى ليل الناس، فینام كما ينامون، لا يعتاده الأرق ولا يوقظه الطيف ولا يسليه القصص النائم أو القصص المستيقظ، فنفس الإنسان سئوم، وقدرتها على احتمال الأعاجيب محدودة، وقد احتملت نفس شهريار من الأعاجيب أكثر مما كانت تطيق، فليعد رجلًا من الناس، ولি�حيي بغرائزه الجامحة وعقله المتواضع الضئيل كما يحيون، من له بذلك؟! وما سبileه على النوم؟! وما سلطانه على الأطيف؟! إنه لمغرق في نومه، قد فقد نفسه وفقدته نفسه، ولكن هذا صوت الطائف يبلغ أذنيه، وهذا شيء كأنه يد الطائف يمس كتفه، وهذه الكلمة تلقى في روعه: ما أسرع ما سئمت قصص شهرزاد! أسرع فإنها توشك أن تتحدث إلى نفسها، وينهض الملك مسرعاً لا يُلوّي على شيء، فيسعى من غرفته إلى غرفة الملكة، ويمر بأحراسه وبأحراس الملكة غير ملتفت إليهم ولا حافل بهم، وينسل إلى غرفة الملكة رفيقاً رشيقاً حتى يأخذ مجلسه ذاك الذي تعود أن يأخذه لأن العهد به لم ينقطع، وإذا هو مصح قد جمع نفسه كلها وضم بعض أجزائها إلى بعض، كما تتضمن أوراق الزهرة التي تنتظر لتنفتح أن تمسها قطرة الندى. وهذه قطرة الندى تمس نفس شهريار؛ فهذا الصوت المعروف المألوف يقول: «فلما كانت الليلة الرابعة عشرة بعد الألف قالت شهرزاد.»

ثم ينقطع الصوت وتستأنف شهرزاد حديثها قائلة: «بلغني أيها الملك السعيد أن الملكة فاتنة ردت على ملوك الجن سفراهم، وأبىت أن تسمع طلب السلم إلا من الذين شدوا نار الحرب، وقد عاد السفراء إلى سادتهم مخذولين مذهورين، ولكن وزراء الملكة ورجال حاشيتها أنكروا في أنفسهم صنيع مولاتهم بالسفراء ومن أرسلوهم، ولم يستطعوا مع ذلك أن يجهروا بما أضمروا أو أن يعلنوا ما أسروا، وعرفت الملكة ذلك، فلم تسألهم عنه ولم تبادلهم بشيء منه. على أن أباها طهمان بن زهمان هو الذي اجترأ عليها هذه المرة كما اجترأ عليها حين تحدث ملوك الجن ودعتمهم إلى الحرب.»

قال طهمان بن زهمان: «لم يبق لي من الأمر شيء يا ابنتي يبيح لي أن أتحدث إليك فيما تبرمين أو تنقضين، بل لم يكن لي من الأمر شيء قبل أن أنزل لك عن هذا الملك الذي أنت أحق به مني، وأقدر بشبابك وحكمتك وفطنك على تدبيره وتصريف أموره من هذا الشيخ الفاني الضعيف، فلست أتحدث إليك الآن؛ لأن لي في الحديث حقاً يبيحه لي القانون أو تخولني إياه مراسم الملك، وإنما أنا أب يتحدث إلى ابنته، ومن حق الآباء يا ابنتي، بل من الحق عليهم، أن ينصحوا لأبنائهم، وإن كان من العسير على الشباب الذين يستقبلون الحياة واثقين بأنفسهم وبالحياة أن يسمعوا لنصح الشيوخ الذين يستذربون العيش شاكين في أنفسهم وفي العيش، فهبيبني أريد أن أريح نفسي حين أراجحك فيما أصدرت من أمر، إنك ملكة يا ابنتي، وللملوك حرمة وقدس، وما أرى إلا أنك حريصة على أن تُرْعِي حرمتك ويوقّر لك ما أنت جديرة به من الإكبار، وأحسب أن أول ما يجب عليك في ذلك هو أن تؤدي إلى الغير ما تحبين أن يؤديه غيرك إليك، وقد كانت بينك وبين هؤلاء الملوك حرب أعلنها السفراء، ويراد أن يكون بينك وبين هؤلاء الملوك سلم يطلبها السفراء ويقررونها. فما عدولك عن هذه الطريق المألوفة؟ وما ابتداعك سنة لم يعرفها ملوك الجن فيما توارثوا من السنن والتقاليد؟!»

وسيقول بعض شعراء الناس في يوم قريب أو بعيد:

في يوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نُسرُّ

وهذا اليوم لك يا ابنتي، فلا تبطرّي ولا تأشري، ولا تسرفي على عدوك المنهزمين، وخصمك المقهورين؛ فقد يكون يوم آخر عليك فأياشر عدوك كما أشرت، ويبطر خصمك كما بطرت، ويسرفون عليك كما أسرفت عليهم، ويردون سفراءك مهينين كما ردت سفراءهم مهينين.

وشيء آخر يا ابنتي وددت لو قدّرتِ فيه؛ فقد كان هؤلاء الملوك يستطيعون أن يرجعوا عن حربك كما أقدموا عليها دون أن يسفروا إليك أو يعرضوا عليك صلحاً، ينتظرون أن تدور الأيام لهم بعد أن دارت عليهم؛ ولكنهم قبلوا الأمر الواقع ومضوا على سنة الملوك من قبلهم، فاعترفوا لك بالغلب وألقوا إليك السلم وطلبوها منك الصلح، فاحذري وقد لقيتهم هذا اللقاء ورددت مجاملتهم هذا الرد، أن يعودوا أدراجهم، وأن يطاؤلوا ويماطلوا وينتظروا معاودة الحظ لهم، وأن يبقى الأمر بينك وبينهم مختلطاً مضطرباً، لا هو بالسلم التي تستأنف فيها الصلات بين الأمم والشعوب، ولا هو بالحرب التي يكون فيها الغالب والمغلوب، وما أظن يا ابنتي أنك تريدين أن تغيري على هؤلاء الملوك في ممالكهم، ولا أن تغزو جيوشك كل واحد منهم في عقر داره؛ فقوتك لا تبلغ هذا، وحبك للرعاية يأبى عليك أن تعرضيها لحرب الهجوم بعد أن عصمتها من حرب الدفاع. وإذا فسيبقي الأمر معلقاً بينك وبين أعدائك حتى يستأنفوا الحرب أو تزهدى أنت هذه الحال المعلقة فتطلبني إليهم السلم، ويوشك كل واحد منهم أن يرد عليك سفراءك كما رددت عليه سفراءك. وبعد: فإن الملوك لا يعاملون أنفسهم بهذه العاملة، ولا يتطلب أحدهم إلى الآخر أن يذل ويستكين ويسعى طالباً للصلح ومعطياً بيده. كان ذلك يجري في الزمن القديم قبل أن تتحضر الجن وتقرر القواعد التي تنظم العلاقات بين الأمم والشعوب وبين الدول والملوك، فأما الآن فإن نظام السفراء لم يخترع عبثاً، وإنما أنشئ مثل هذا الأمر الذي أنتم فيه.»

قالت الملكة باسمة: «أحبب إليّ بكل ما تأمرني به يا أبتي وبكل ما تشير به عليّ؛ فأنت الملك وستظل الملك دائماً، وإنما أنا رعية لك، وإذا نهضت بالأمر فإنما أنهض به؛ لأن طاعتك عليّ واجبة، ولأن شبابي وقاء لشيخوختك، وكل ما قلته لي حق لا غموض فيه ولا غبار عليه لولا أنني ضامنة أن هؤلاء الملوك الذين أثاروا حربهم ظالمين لن يستطيعوا أن يعودوا إلى ممالكهم حتى آذن لهم بهذه العودة؛ فإن السر الذي أتاح لي أن أحول بينهم وبين الفوز يتيح لي أن أحول بينهم وبين الإياب إلى أوطانهم، فهم معلقون بأمرى بين النصر والهزيمة: لن يُنصروا لأنني لا أريد لهم أن ينصرفوا، ولن يرجعوا لأنني آبى عليهم أن يرجعوا.»

قال طهمان بن زهمان: «ويحك يا ابنتي! أستطيعين ذلك؟»
 قالت: «كما استطعت أن أقفهم موقفهم هذا لا يتقدمن خطوة.»
 قال طهمان بن زهمان: «إن كل أمرك غير مفهوم يا ابنتي، ويفتهر أنك لا تريدين أن أفهم منه شيئاً.»

قالت الملكة باسمة: «من يدري؟! لعلك تفهم منه كل شيء في وقت قريب أقرب جدًا مما تظن، ولكنك تنكر على ردي للسفراء ومعاملتي للملوك بغير ما جرى به العرف، وحملي إياهم على ما لا ينبغي لهم من الذلة والهوان، وقد كان هذا حقًا لو أنني أثرت عليهم حربًا ظالمة، وقد كان هذا حقًا لو أنهم أثاروا عليًّا حرثًا دعا إليها اختلاف مصالح الشعوب وتباین منافعهم وتقديرهم لهذه المصالح والمنافع، سواء أكان هذا التقدير خطأ أم صوابًا، ولكنهم أثاروا حربًا ظالمة لم تقتضها مصلحة عامة ولم تدع إليها منفعة عاجلة أو آجلة لأمة من أممهم أو شعب من شعوبهم؛ إنما اتبع كل منهم هواه وركب رأسه وانقاد لشهوته الجامحة.

وقد كنت تذكّرني يا أبت بأن هذه الحرب إنما أثيرت لأن هؤلاء الملوك يحبونني ويخطبونبني، وأنا لا أحب منهم أحدًا ولا أرضي لنفسي من بينهم زوجًا، وكنت تذكّرني بأن هذا الأمر لا يعني رعيتنا ولا رعايانا من قريب أو بعيد، فهذا الظلم الصارخ، وهذا العداون المنكر، وهذا الإهانة لحقوق الشعوب، وهذه التضحية الآثمة بالنفوس التي أمر الله أن تُعَصَّمَ والدماء التي أمر الله أن تُحْقَنَ والحرمات التي أمر الله أن تُرْعَى، في سبيل شهوة فردية لا تعتمد على ما يشبه الحق أو العدل؛ كل هذا خلائق أن يهدى حق مقتفيه في طاعة الشعوب، وكل هذا خلائق أن يلغى حق مقتفيه في النهوض بأمر السلطان.

فهؤلاء المعتدلون عندي ليسوا ملوكًا ولا أشباه ملوك، وإنما هم عندي طغاة ظالمون، فإن للملك حقوقه، ما في ذلك شك؛ ولكن هذه الحقوق رهينة بواجبات ينبغي أن تؤدي؛ فإذا ضيّعت الواجبات أهدرت الحقوق.

فالسفراء الذين أقبلوا عليًّا ثم رددوا مخذولين على سادتهم، لم يكونوا سفراء ملوك يأخذون الملك بحقه، وإنما كانوا سفراء طغاة قد فقدوا حقوقهم على رعيتهم كما فقدوا حقوقهم على نظائرهم، وما أكره أن تدور الأيام عليًّا بمثل ما دارت به عليهم إن اقترفت من الإثم مثل ما اقترفو، واجترحت من الذنب مثل ما اجترحوا، وجنيت من السيئات ما يجعلني لذلك أهلاً.

وقد تعلمت منك يا أبت أكثر مما تظن أني تعلمت، وأول ما تعلمت منك أن آخذ ملكي بحقه، وأن أنهض بما عليًّا من واجب قبل أن أطلب ما لي من حق، وأن أبيح للشعب معصيتي والخروج عليًّا وإهانة سلطاني عليه، إذا لم أعرف له حقه، ولم أؤد إليه ما ينتظر أن أؤدي إليه، فلا بأس عليك، ولا بأس علي، ولا بأس على رعيتنا من هذه الخطة التي اتخذتها، وانظر! فهذا وزيرنا قد أقبل ينبعنا بأن عدونا قد قبلوا ما فرضنا عليهم من شرط، وهم يريدون أن ننظم وفودهم علينا واستقبالنا لهم.»

وكان الوزير قد دخل أثناء حديث الملكة، فلما سمع آخر هذا الحديث حيًّا وقال:
«إن الأمر كما ترين يا مولاتي، وإن عدوك يطلبون كيف يكون وفودهم عليك وكيف
يكون استقبالك لهم؟»

قالت الملكة: «فكيف ترى أن يكون ذلك أيها الوزير؟»

قال الوزير: «ملوك يا مولاتي، فيجب أن يستقبلوا كما يستقبل الملوك، ومراسم ذلك
معروفة مقررة.»

قالت الملكة وهي تضحك: «بل طغاة بغاة يا سيدي، فيجب أن يستقبلوا كما يستقبل
الطغاة البغاة. تلقَّهم أنت إن شئت. أما أنا فلن ألقاهم، ولك أن توكل بلقائهم من أحبت،
فإذا مثلوا بين يديك، أو بين يدي وكلائك؛ فخريهم بين الموت وبين أن يشهدوا على أنفسهم
بالطغيان وإهار حقوق الشعوب، فأيهم اختار الموت فجرعه كأسه، وأيهم اختار الحياة
— وكلهم سيختارها — وأشهد على نفسه أنه طاغية مهر لحق شعبه، فليخلع نفسه
من الملك ولْيُلْقِي إلينا بيده، ونحن نسلمه بعد ذلك إلى وطنه يصنع به ما يشاء، ثم لا
تراجعني في أمرهم بشيء قبل أن تنفرد ما قدمت إليك.»

وتم كل شيء يا مولاي كما أرادت الملكة، ورُدّت إلى شعوب الجن حقوقها المغصوبة،
وحرياتها المسلوبة، وتأنَّذ فاتنة في شعوبها وفي الشعوب الأخرى بأن أمور الأمم إليها؛
تُشرك فيها من الملوك والرؤساء من تشاء وكيف تشاء، وتقيد ملوكها ورؤسائها من
القوانين بما تحب، وتشرف على إنفاذ ملوكها ورؤسائهما لإنفاذ هذه القوانين، وتتحفف
من الملوك والرؤساء إن خالفوا عن هذه القوانين.

وأقامت شعوب الجن يا مولاي لهذا الحدث أعيادًا رائعة، وأَرْخت به منذ كان وما
زالت تؤرخ به إلى الآن، وجعل الجن يتنزلون ببعضه إلى الإنس بين حين وحين، فيفهم
الناس عنهم ذلك حيناً ويخطئون الفهم في أكثر الأحيان، وهذا مصدر ما نرى عن الناس
من الاختلاف في نظم الحكم ومن اضطراب العلاقات بين الرعية ورؤسائهما وبين الأمم
والدول.

ومن يدرى يا مولاي؟! لعل عالم الجن أن يصل إلى الناس ذات يوم أو ذات قرن
واضحًا جليًّا لا لبس فيه ولا غموض. أو لعل عقول الناس أن ترتقي ذات يوم أو ذات
قرن إلى حيث تفهم عن الجن في غير مشقة ولا جهد. يومئذ أو قرنئذ تصلح أمور الإنسان
كما صلحت أمور الجان.

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

ولم يأْوِ الملك في موضعه حين عاد إلى غرفته كما كان يقدّر أنه سيفعل، ولم يذهب إلى نافذة من نوافذ الغرفة ولا إلى طُنف من أطنااف القصر؛ ليشرف على الحديقة ويستتشق الهواء الطلق كما تعود أن يفعل من قبل، وإنما عكف على نفسه يتدارس ما سمع ويستحضر ما شهد ويتذكر ما رأى، وكأنه أُنسى نفسه في هذا العكوف، حتى أقبلت شهرزاد وقد ارتفع النهار، فلما أحس مقدمها رفع رأسه إليها دهشاً وهم أن يتكلم، ولكنه رأى في وجهها الجد، وسمعها تقول في صوت حازم باسم معًا: «لشدَّ ما هانت عليك أمور الملك يا مولاي! ها أنت ذا تخلو إلى نفسك في زاوية من زوايا غرفتك، كأنك فرد من أفراد الناس قد فرغ للفلسفة والتفكير. ألم تحاسب نفسك على هذا الوقت الطويل الذي أنفقته في غير شئون الملك؟ ألم يخطر لك أن للشعب حقوقاً يجب أن تؤدي إليه، وأن أوقات الملوك ليست خالصة لهم من دون الرعية؟!»

قال الملك دهشاً في صوت كأنه يأتي من بعيد: «يا عجباً! كأنما أسمع حديث فاتنة.» قالت شهرزاد ذاهلة: «فاتنة! فاتنة! ليس هذا الاسم علىٰ غريباً، وأحسب أن لي به عهداً قريباً.»

القدس سبتمبر سنة ١٩٤٢

الإسكندرية يناير سنة ١٩٤٣

